# النابغة الذبياني في علاقته باللخميين وشعره في الغساسنة

عرسان الرامـــيني

مدرس بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ،
جامعة اليرموك ، إربد ، الأردن .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية
العدد 22/85

## الملخص

لقد رفض الدارسون المعاصرون التفسير القديم للخلاف بين النابغة الذبياني وملك الحيرة في زمنه ، النعمان بن المنذر ، ورأوا أن أسباب هذا الخلاف لم تكن شخصية ، كما يقدمها الأخباريون ، وإنما كانت سياسية قبلية . فهم يعتقدون أن النابغة وجد مصلحة قبيلته ، ذبيان ، تكمن في إقامة علاقات متوازنة مع كل من الغساسنة واللخميين ، من غير انحياز إلى طرف ضد الآخر .

إن الدراسة الحالية لا تجادل في أن الخلاف المذكور كان سياسياً قبلياً ، لكنها تحاول أن تعيد تركيب صورته السياسية القبلية هذه . فهي ترى أن قوم النابغة الأدنين . بني يربوع بن غيظ ، هددوا مصالح استراتيجية للحيرة في الجزيرة العربية ، فاستثاروا بذلك كلاً من النعمان بن المنذر وسادة ذبيان ، حلفائه المقربين ، وأنهم بالنتيجة خرجوا من ديار القبيلة فلجأوا إلى شمالي الحجاز ، حيث كان الغساسنة متنفذين . وترى الدراسة الحالية أيضاً أن بني يربوع بن غيظ هؤلاء ، ومعهم النابغة ، لم يغيروا ولاءهم السياسي وحسب ، بل غيروا انتماءهم القبلي فتركوا نسبهم في ذبيان والتحقوا بنسب قضاعة . لكن بعد بضعة أعوام ، كما ترى الدراسة الحالية . وعند نهاية حكم النعمان بن المنذر ، سوّى النابغة وقومه خلافاتهم مع قبيلتهم ومع الحيرة ، ورجعوا إلى نجد ، حيث انغمسوا من جديد في أنشطة القبيلة ، وأهمها النزاع مع الغساسنة .

هذه النتائج اقتضت إعادة النظر في قصائد النابغة في الغساسنة ، وبخاصة فيما يتصل بتوقيتها ، وبدلالتها على طبيعة العلاقة بين الطرفين . وهنا ، تبين الدراسة الحالية أن هذه القصائد تعود في معظمها إلى ما بعد عهد النعمان بن المنذر ، وأنها تعبر ، في الواقع ، عن علاقة متوترة بين النابغة والغساسنة ، لا عن علاقة حميمة .

## مقدمة

يجمع الأخباريون العرب على أن غضب ملك الحيرة النعمان بن المنذر على النابغة الذبياني إنما بسبب سعي الوشاة لإفساد العلاقة الوطيدة بينهما ، لكنهم ، في الوقت نفسه ، يختلفون في ماهية تلك الوشاية ، وفي شخصية الواشي ، وفي تفاصيل أخرى[1] . فالرواية الأكثر شيوعاً هي تلك الخاصة بالمتجردة ، وهي رواية يشترك في سندها بصريون وكوفيون . وهنا يختلف هؤلاء في تحديد صفة علاقة المتجردة بالنعمان : هل كانت زوجة له أم مجرد جارية ؛ وفي أصل هذه العلاقة : هل كانت المتجردة سبية حازها النعمان من في إحدى غزواته ، أم أنها كانت عند رجل من جرهم ، فانتزعها النعمان من زوجها ؛ وكذلك وصف النابغة للمتجردة في شعره : هل هو نفسه اجترأ على وصفها ، أم أنه فعل ذلك تلبية لرغبة الملك ؛ وأيضاً في الشخص الذي نبه الملك إلى ما تضمنه الوصف من تجاوزات أخلاقية ودلالات خاصة ، ليوغر صدره على الشاعر : هل هو مرة بن قريع السعدي أم المنخل اليشكري ، والذين يرون أن هذا الأخير هو الذي فعل ذلك يدعون أنه كان على علاقة محرمة بالمتجردة ، وأن غيرته عليها هي التي جعلته يشي بالنابغة لدى الملك . وإلى جانب هذه الرواية ، تنقل المصادر رواية أخرى نفهم منها أن عبد القيس بن خفاف البرجمي التميمي نظم ، بالاتفاق مع مرة بن قريع السعدي ، شعراً في هجاء النعمان بن المنذر وأنشده إياه على أنه للنابغة ، فلما سمع النابغة بذلك هرب خوفاً على نفسه من بطش الملك ، ومن الأخباريين من ينسب هذا الشعر إلى النابغة على أنه له حقيقة .

إن تفسير الأخباريين لاضطراب علاقة النابغة بالنعمان تفسير أخلاقي شخصي ، لكنه لم يكن مقنعاً للدارسين المعاصرين . فالأخباريون يحاولون أن يفسروا ما ورد في شعر النابغة من إشارة صريحة إلى سعي الوشاة به عند النعمان ، إلا أن تفاصيل قصتهم تذكرنا بعمل أصحاب «المثالب» ،لكنها تنم عن محاولة مكشوفة لإثارة الناس وإمتاعهم . ومهما يكن من أمر ، فهي تفتقر إلى أدنى سند في شعر النابغة نفسه أو في أي شعر جاهلي آخر . فالنابغة يشير إلى

أقوال اتهمه بها بالباطل عند النعمان جماعة يسميهم «أقارع عوف» ، وإلى خيانة زعم الوشاة كذبا أنه ارتكبها في حق الملك ، لكنه ، من جانب آخر ، لا يكشف عن هذه الخيانة ولا عن تلك الأقوال ، ولا عن أية تفاصيل أخرى .

وهكذا ، كان من الطبيعي أن يواجه تفسير الأخباريين رفضاً في الدراسات المعاصرة الناقدة التي اهتمت بالنابغة ، فقد وصف شوقي ضيف الروايات ذات العلاقة بأنها «اخترعها الرواة ليفسروا اعتذاريات النابغة التي تنبئ بأنه جنى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر[2]» . وما يقوله شوقي ضيف يؤيده العشماوي ، في دراسته المشهورة عن النابغة ، وذلك من خلال مناقشة أوسع لتصورات الأخباريين . وهو يصل في النهاية إلى القول : «وإذا صح ما نشكك فيه ، فلا بد أن يكون هروب النابغة من النعمان وغضب النعمان عليه لسبب آخر غير هذه القصة ؛ قصة المتجردة[3]» .

وهذا السبب الآخر ، كما يراه كل من شوقي ضيف والعشماوي ، يتمثل في سعي النابغة إلى خلق توازن في علاقة قبيلته ذبيان بكل من آل نصر وآل جفنة ، وذلك بعد أن اكتوت قبيلته بنار الحرب مع الغساسنة بسبب تحالفها مع الحيرة ، ودفعت من دمائها وأموالها ثمناً باهظاً لقاء ، هذا التحالف[4] . فقد كان يحاول ، كما يقول العشماوي ، أن يأتلف غسان والحيرة في وقت واحد ، وأن يجعل منهما الاثنين ، غسان والحيرة ، صديقين حليفين ، لكن يرضى عن نفسه بوصفه شاعراً أجاد الرسالة وأداها ، ولكي يوفر لقبيلته الأمن والاستقرار[5]» . ويلاحظ شوقي ضيف ، بصفة خاصة ، أن النعمان بن المنذر كان يهمه ألا تضع الحرب أوزارها بين الغساسنة من جانب ، وذبيان وسائر قبائل نجد الغربية من الجانب الآخر ، وأن اتصال النابغة بالغساسنة كان يتعارض مع التوجه ، بل إن مدائحه فيهم ، كما يرى شوقي ضيف ، بدأت وكأنها إعلان ولاء لهم من جانبه وجانب قبيلته معاً ، ولهذا كان ذنبه عظيماً لدى النعمان[6] . وهكذا يتضمن تفسير الدارسين المعاصرين[7] أن مفارقة النابغة للنعمان كانت لأسباب سياسية قبلية ، وليس لأسباب شخصية كما يرى الأخباريون .

إن هذا التفسير ، مع أنه ينكر بحق على الأخباريين شخصية علاقة النابغة بالنعمان ، يبدو ، في الوقت نفسه ، مدفوعا برغبة قوية في إبراز الجانب الإنساني في شخصية النابغة ، وفي غمرة ذلك ، لم ينته أصحابه إلى تضاربه مع بعض الحقائق الأساسية على كلا الصعيدين السياسي والقبلي . فهو ، أولاً ، يتضمن أن علاقة النابغة بكل من اللخميين والغساسنة ، كما تظهر في شعره ، كانت متزامنة ، في حين تشير نتائج نولدكه العامة حول تاريخ «أمراء غسان» ، وهي نتائج لم يطعن فيها حتى الآن ، إلى أن الملك الغساني الذي قال فيه النابغة كل شعره «التألفي» تقريباً ، وهو عمرو بن الحارث ، حكم بعد إقصاء النعمان عن الحكم وسقوط مملكة الحيرة برمتها[8] . وهو ، ثانياً ، يقدم النابغة بوصفه سفيراً ، ممثلاً لذبيان في بلاط الغساسنة ، هدفه رأب الصدع في العلاقة بين الطرفين ، في حين يغفل أن النابغة لم يكن على صلة حميدة بقيادة ذبيان ، التي تولت وحدها رسم السياسة العامة للقبيلة ، واتخاذ القرارات بخصوص علاقاتها الخارجية ، وهو تناقض يتجلى أكثر في ضوء ما هو معروف من أن هذه السفارة المزعومة لم تسفر عن شيء ، بل بقيت العداوة بين ذبيان والغساسنة على أشدها ، وتوفى النابغة قبل أن يشهد أي تراجع في حدتها . وعلي أية حال ، فقد قام التفسير السابق على ملاحظات عابرة لشكل العلاقة بين النابغة ومراكز القوى السياسية في الجزيرة العربية ، من غير استقصاء معقول للروايات ذات الصلة .

إزاء ذلك ، يحاول البحث الحالي ، بالاعتماد على نتائج دراسات جديدة عن الجزيرة العربية قبيل الإسلام وعلى معلومات مصادرية لم توظف حتى الآن ، أن يعيد صياغة التفسير السياسي القبلي الذي يقترحه الدارسون المعاصرون . فقارئ هذا البحث سيجد ، في النهاية ، أن خلافاً ذا علائق سياسية وقع في أوساط ذبيان ، وأدى إلى انشقاق قوم النابغة عن قيادة القبيلة ومن ثم عن الحيرة ، التي كان الذبيانيون عموماً يدينون لها بالولاء . وسوف يجد أن اعتذاريات النابغة للنعمان كانت صدى لعودة قومه إلى القبيلة بعد تسوية خلافاتهم معها . أما قصائده في الغساسنة فهي تعود ، في عامتها ، إلى ما بعد عهد النعمان بن المنذر ، ولا تدل ، في واقع الأمر ، على علاقة وثيقة بين

الطرفين : إنها ليست قصائد مديح بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما قصائد استشفاع عبرت عن حالة من عدم التوازن السياسي والقبلي نشأت في الجزيرة العربية في أعقاب سقوط مملكة الحيرة . ومن الجدير بالملاحظة ، هنا ، أن فوزي الأمين لفت الأنظار إلى حالة الانشقاق في أوساط ذبيان ، وإلى مسؤوليتها عن اتصال النابغة بالغساسنة[9] ، لكنه لم يفطن إلى خلفيتها الحقيقية ، ثم إن ثقته الزائدة بروايات الأخباريين فيما يتعلق بزمن الأحداث التاريخية[10] جعلته يخطئ في توقيت قصائد النابغة في الغساسنة . ومن ثم معرفة ارتباطاتها السياسية .

## أ

ينحدر الشعراء الجاهليون ، عموماً ، من أسر متنفذة في قبائلهم . فهم سادة من الدرجة الأولى أو الثانية ، ومن هنا كان الشاعر الجاهلي ناطقاً رسمياً باسم القبيلة ، ليس بفضل منزلته الشعرية فقط ، بل بفضل منزلته الاجتماعية أيضاً[11] . والنابغة ، بصفة خاصة ، مشهود له بالسيادة . فقد نص القدماء على مركزه المتنفذ في القبيلة ، واحتوت المصادر على إشارات كافية تعزز ذلك . فهناك رواية متداولة تصفه بأنه «أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم[12]» ، وتصفه رواية أخرى بأنه «كان عفيفاً شريفاً في قومه[13]» ، وفي رواية ثالثة أنه «لم يقل الشعر إلا بعد أن كبر وساد قومه[14]» . ويشير ابن سعيد المغربي إلى عظم مكانة النابغة في ذبيان ، ويدعي أن مكانته تلك لم تمنعه من التجاوز في مدح النعمان والتذلل له ، طمعاً في نيل عطاياه[15]» . وينقل البلاذري رواية تقول إن النابغة «كان سيد غطفان[16]» ، وهو قول يحمل مبالغة واضحة ، لكنه في الوقت نفسه يحمل دلالة خاصة فيما نحن بصدده . ويدل على شرف أسرة النابغة أن عدداً من رجالات قريش ، وفي مقدمتهم خلفاء أمويون ، أصهروا إلى حفيد أخيه عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية[17] . وهكذا فإن النابغة ، في اتصاله بملوك آل نصر وآل جفنة ، وبعدد من سادة القبائل العربية ، كما يظهر في شعره ، إنما يستند إلى قاعدة عريضة من الشرف لا ريب فيها .

لكن ، إذا كان النابغة سيداً ـ وهو كذلك ـ فمن هم الذين سودوه ، وعلى

من كانت له السيادة؟ من المؤكد أنه لم يكن مسوداً على ذبيان ، وذلك لأسباب كثيرة ، أبسطها أنه لم يكن الأشرف في بني مرة ، وهم الفرع الذي ينتمي إليه من ذبيان ، فبالأحرى ألا يكون مسوداً على ذبيان بأسرها . فبيت بني مرة في الجاهلية ، وكذلك في الإسلام ، كان في آل أبي حارثة[18] ، الذين يقول فيهم زهير[19] :

لوْ كانَ يَخْلُدُ أقوامٌ بمَجدهمُ ... أو ما تَقَدّم من أيامهم خَلَدوا
أو كان يَقعُدُ فوق الشمس من كرَم ... قومٌ بأولهم أو مَجْدهم قَعَدوا
قومٌ أبوهم سنانُ حينَ تنسبُهمْ ... طابوا وطابَ من الأولاد ما وَلَدوا
إنسٌ إذا أمنوا جنٌ إذا فَزعوا ... مُرَزّؤون بَهاليلٌ إذا جُهِدوا
مُحسّدون على ما كان من نعَمٍ ... لا ينزعُ الله منهمْ ما له حسدوا

وآل أبي حارثة هؤلاء لهم نصيب الأسد في صنع تاريخ بني مرة في الجاهلية ؛ فهم الذين قادوهم في معظم حروبهم[20] ، وهم ممثلوهم لدى الملوك[21] ، ولم يظهر في الشعر الجاهلي أهل بيت من السوقة بأجمل مما ظهروا[22] .

مرة أخرى ، إذا لم يكن النابغة مسوداً على بني مرة ، فبالأحرى ألا يكون مسوداً على ذبيان ، القبيلة الأم . فالفرع الأساسي الآخر لهذه القبيلة ، والأعظم شرفاً كما يبدو ، كان يتمثل في بني فزارة . وقد اجتمع هؤلاء على آل بدر بن عمرو ، بيت فزارة في الجاهلية بلا منازع[23] ، وهو ، كما قيل ، واحد من أشرف ثلاثة بيوتات بدوية[24] . وتشير الأدلة إلى أن آل بدر هؤلاء تسلموا في أوقات معينة سيادة غطفان بأسرها[25] ، فضلاً عن ذبيان . وكان أول من ظهر منهم على مسرح الأحداث حذيفة بن بدر الذي سعّر مقتله حرب داحس والغبراء ، وكان يلقب بـ«رب معد»[26] ، لعظم منزلته . وقد رأس بعده ابنه حصن بن حذيفة . وكان حصن قد قاد كتائب الأحاليف من أسد وغطفان ، في يوم جبلة ، المشهور[27] ، وفي مواطن أخرى[28] . وبعد وفاته ، خلفه على السيادة والشرف

ابنه عيينة بن حصن[29] ، فبلغ فيهما ما كان قد بلغه أبوه وجده من قبله[30] . وكان عيينة من سادة القبائل الذين عقدوا حلفاً مع النبي بعد صلح الحديبية[31] . وفي فتح مكة ، ظهر قائداً لجيمع القوات المنحدرة من قيس عيلان في جيش المسلمين[32] . وفي حرب الردة ، انضوى تحت لوائه جميع مرتدي غطفان[33] .

وكذا ، إذا كانت سيادة ذبيان ميراثاً مشتركاً بين آل حذيفة بن بدر وآل سنان بن أبي حارثة ، فإن الحديث عن سيادة النابغة ينبغي أن ينحصر في إطار عشيرته الدنيا ، بني يربوع بن غيظ ، وهي واحدة من بعض عشائر كانت تؤلف بني مرة .

## ب

إن تنفذ النابغة في بني يربوع بن غيظ دون سواهم من عشائر بني مرة ، فضلاً عن ذبيان بأسرها يؤكده أدلة تقودنا أيضاً إلى فهم أفضل لشعر النابغة في ارتباطاته السياسية والقبلية .

ففي التقديم للقصيدة السادسة عشرة في ديوان النابغة ، ومطلعها :

**جَمِّعْ مَحاشَكَ يا يَزيد فإنني أعْدَدْتُ يَربوعاً لكُمْ وتَميما**

جاء أن يزيد بن سنان بن أبي حارثة المري كان «يمحش» «المحاش» وهم بنو خصيلة بن مرة ، وبنو نشبة بن غيظ بن مرة ـ على بني يربوع بن غيظ بن مرة ، رهط النابغة ، فتحالفوا على بني يربوع على النار ، فسموا «المحاش» لتحالفهم على النار[34]» . وهناك رواية ينقلها ابن سلام تجعل تحالف «المحاش» يضم عامة أحياء بني مرة ، لكنها ، كالرواية السابقة ، تربط ظهور هذا التحالف بالنزاع مع بني يربوع : «كان أبو ضمرة (يزيد بن سنان) قد جمع بني نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف ، وبني صرمة بن مرة بن عوف ، وبني مالك بن مرة ، وبني سهم بن مرة ، وبني خصيلة بن مرة ، على أبناء عمومتهم بني يربوع بن غيظ بن مرة ، فأوقدوا على عادتهم نارا وتحالفوا لديها على بني يربوع . . .[35]» . وفي رواية ثالثة ، وهي عن الأصمعي ، أن «المحاش» هم «أربعة

أحياء من بني فزارة ومرة يجتمعون فيقال لهم المحاش[36]» . ويبدو ، في ظل العلاقة الوطيدة بين آل بدر الفزاريين وآل أبي حارثة المريين ، ان رواية الأصمعي ليست بعيدة من الصحة في إدخالها عناصر فزارية في تحالف «المحاش» ضد بني يربوع بن غيظ[37] ؛ فسجل أيام العرب يكشف عن تعاون وثيق مستمر بين الطرفين[38] ، وفي الوقت نفسه ، لا يتضمن تاريخهما ما يدل على أن هذه العلاقة الوطيدة قد تعكر صفوها في وقت من الأوقات . وشعر النابغة نفسه يحتوي على إشارة واضحة إلى انفصام عرى العلاقة بين قومه وسائر «ذبيان» ، أى فزارة ومرة ، وعلى إشارة أخرى ، في الموطن نفسه ، إلى «تناصر مرة» ضد قومه[39] :

ألا أبْلغا ذُبْيانَ عَني رسالةً ... فَقَدْ أصْبحت عن مَنْهج الحق جائرَه

أجدَّكُم لا تَزْجُروا عَنْ ظلامةً ... سَفيهاً ولَنْ تَرعَوا لذي الودّ آصرَه

فَلَو شَهدَتْ سَهْمٌ وأفْناءُ مالك ... فَتَعْذرني من مُرّة المتَناصرة

لجاءوا بجَمْع لَمْ يَرَ النّاس مثلَه ... تَضاءل منْهُ بالعَشيّ قَصائرَه

ويمكن أن نفهم من هذه الأبيات أن عامة بني مرة ـ باستثناء عشيرتي سهم ومالك ، على النقيض مما تدعيه رواية ابن سلام السابق إيرادها ـ قد تجمعوا ضد إخوانهم بني يربوع بن غيظ ، قوم النابغة ، وأن بني فزارة أيدوا تجمعهم ووقفوا إلى جانبهم . وبصرف النظر عن مدى صحة بعض التفاصيل في الروايات الثلاث السابقة ، فمن الواضح أن تحالفاً قويّاً ظهر في صفوف ذبيان ضد قوم النابغة ، بني يربوع بن غيظ ، وضلعت فيه قيادة القبيلة ، وأن كان ذلك مصحوباً بمواجهات دامية أو ، في أقل تقدير ، بتهيؤ الظروف لحدوث مواجهات من هذا النوع .

إن النابغة نفسه لا يفصح عن الأسباب التي جعلت بني مرة ، ومن ورائهم سائر ذبيان ، «يتناصرون» ، كما يقول ، ضد قومه ، والأخباريون لا يقدمون هم الآخرون شيئاً في هذا الصدد . لكن المصادر تحتوي على ما يمكن أن يلقي ضوءاً

على إشارات النابغة هنا . ففي الحديث عن تداعيات الحرب والسلم بين عبس وذبيان ، يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته[40] :

لَعَمْـري لَنعْـمَ الحَـيُّ جَـرَّ عَلَيْهِمُ بـما لا يُـواتيهمْ حُصَـينُ بـنُ ضَمْضَم
وكـانَ طَـوَى كَشْحـاً على مُسْتَكَنَّة فَـلا هُـوَ أَبْـداهـا ولَـم يَتَقَـدّم
وقَـال سَأَقْضي حاجَتي ثُمّ أَتّقـي عَـدُوّي بأَلْـف مـن وَرائـيَ مُلجَم
فَشَـدَّ ولَـم تُفْـزَع بُطـونٌ كَـثيـرَةً لَـدى حَيْـثُ أَلْقـتْ رَحْـلَها أُمُّ قَشْعَم

إن حصين بن ضمضم هذا الذي يذكره زهير هو أحد سادة ذبيان . وتتفق المصادر[41] على أنه رفض اتفاقا للصلح كانت أبرمته عبس وذبيان لإنهاء حالة الحرب بينهما ، ثم أقدم على قتل عبسيين ثأراً لمقتل أبيه وأخيه فيما كان قد مضى من أحداث تلك الحرب ، فكادت فعلته أن تشعل نار الحرب بين الفريقين من جديد ، ويقول المفضل الضبي في تفصيل ذلك : «ثم اصطلح الناس ولم يدخل حصين في الصلح ، وحلف ألا يغسل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس ، ويقال ورد بن عمرو ، ورجلاً من بني عبس ثم من بني غالب ، وكتم ذلك فلم يطلع عليه أحدا ، وحمل الحمالة الحارث بن عوف بن أبي حارثة وهرم بن سنان بن أبي حارثة ، فلقي الحصين رجلاً من بني عبس ، فقتله ، وبلغ ذلك الحارث وهرماً فاشتد عليهما ، وأراد بنو عبس قتل الحارث فصالحهم على الدية[42]» . ومن رواية أخرى ينقلها البلاذري من غير المفضل ، نفهم أن حصين بن ضمضم أخذ بثأره في أثناء المفاوضات لعقد الصلح ، وليس بعد ذلك ، وأن بنى عبس حاولوا أن يتألفوا حصيناً هذا لكنهم فشلوا[43] . وتوجد رواية ثالثة ، ينقلها الميداني ، تجمع عناصر من الروايتين السابقتين وتضيف عناصر جديدة ، وتؤكد أن اعتداء حصين بن ضمضم على العبسيين حدث بعد الاتفاق على الصلح وأداء الحمالات ، وأن آل أبي حارثة غضبوا لما فعله حصين ، وأدوا دية القتيل ، أو القتلى ، إلى بني عبس[44] .

ومهما يكن اختلاف الروايات في تفاصيل حادثة حصين بن ضمضم ،

فهناك ، كما هو واضح ، اتفاق على خطوطها العريضة . وهذه الخطوط تتضمن أفكاراً أو معلومات مشتقة من شعر زهير آنف الذكر ، ومن أشعار أخرى ، ولذلك يمكن الاطمئنان إلى صحتها . فالبيت الأول من أبيات زهير السابقة يتضمن ثلاث حقائق ، وهي : 1) أن حصين بن ضمضم ينتمي إلى بني مرة[45] ، و2) أنه تصرف بما لا يتفق ومشيئة قومه هؤلاء ، و3) أن تصرفه كان جريرة من الجرائر ، أي جناية يتحمل وزرها جميع أفراد الجماعة القبلية[46] . ومن البيت الثاني نفهم أنه أضمر الخروج على ما كان قد اتفق عليه قومه ، من غير التفات إلى موقفه المعلن مؤيداً كان فيه أم معارضاً . والبيت الثالث قد يكشف عن أن أتباع حصين ابن ضمضم في بني مرة كثيرون ، لكنه ، من جانب آخر ، قد يكشف عن أن حصينا كان يعتقد أن جماعات كثيرة من بني مرة ، وربما من ذبيان عموماً ، تؤيده في موقفه المعارض ، وأنها سوف تنصره حين يقدم على تنفيذ ما كان يخطط له في الخفاء ؛ وعلى أية حال ، لم يكن حصين ليعتقد ذلك لولا أنه كان يتمتع بنفوذ واسع في ذبيان ، أو على الأقل ، في بني مرة . والبيت الرابع والأخير ، كما يرويه الأصمعي[47] ، يدل على أن حصين بن ضمضم كان مبالغاً في تقدير ما سيحصل عليه من المؤازرة ؛ فقد تخلف عن نصرته كثيرون ممن كان يعتقد أنهم سيقفون إلى جانبه عندما يشرع في تنفيذ ما كان قد عزم عليه .

هذا هو ما يعلن عنه شعر زهير بن أبي سلمى فيما يتصل بخروج حصين ابن ضمضم على إجماع قومه ، بني مرة . ومن الواضح من سياق الشعر أن لذلك الخروج صلة بالنزاع بين عبس وذبيان في إطار حرب داحس والغبراء ، وهو ما يراه الأخباريون أنفسهم حين يقررون أن حصين بن ضمضم انتهك ميثاق الصلح الذي كان قد أبرمه قومه مع بني عبس ، فعدا على عبسيين وقتلهم انتقاماً لأبيه وأخيه ، وكانا قد سقطا صريعين في تلك الحرب . لكن الأخباريين لا يتابعون حديثهم فيخبروننا عن نتائج انتهاك حصين لاتفاقية الصلح . صحيح أننا عرفنا أن آل أبي حارثة ، وهم سادة بني مرة ، استنكروا فعلة حصين واشتد وقعها على أنفسهم ، وأن غضب العبسيين وصل حدّا جعلهم يستعدون لغزو بني مرة وقتل سادة من آل أبي حارثة بوصفهم كفلاء الصلح ، لكن ليست هناك

معلومات عن الإجراءات التي اتخذت في حق حصين بن ضمضم . ومهما يكن من أمر ، فمعلومات من هذا النوع سوف تؤكد ، لو وجدت ، توقعاتنا المبنية على الأعراف القبلية في مثل هذه الحالة : التبرؤ من حصين بن ضمضم ونفيه هو وعشيرته الدنيا عن ديار القبيلة ، فضلاً عن دفع ديات العبسيين .

الآن أصبح لغز «المحاش» محلولا ، كما يبدو ، وأصبح لدينا ما يلقي ضوءاً على الخلاف بين قوم النابغة الأقربين ، بني يربوع بن غيظ ، وإخوتهم من بني مرة . فعلماء الأنساب يتفقون على أن حصين بن ضمضم هو أحد رجالات بني يربوع بن غيظ ، ويسوقون نسبه كالتالي : حصين بن ضمضم بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة[48] ؛ وعلى هذا الأساس ، يكون هو والنابغة ابني عم ـ أباهما أخوان . ونسب حصين بن ضمضم في بني يربوع يتوثق بشعر يروي لبعض أقرباء العبسيين المقتولين في حادثة انتهاك الصلح :

سَالَمَ اللهُ مَنْ تَبَرَّأَ منْ غيْظ ... ووَلَّى أثَامُها يَربُوعا

قَتَلُونا حَدّ المواثيق والعهْد ... فمَا كانَ جارُهُمْ مَمْنُوعا

ومن جانب آخر ، جاء في قصة المحاش أن يزيد بن سنان بن أبي حارثة ، بعد أن عقد تحالفاً بين عشائر من بني مرة على بني يربوع بن غيظ ، أخرج هؤلاء إلى بني عذرة بن سعد[49] ، أي أنه نفاهم من ديار القبيلة فلجأوا إلى بني عذرة ـ وكان هؤلاء ينزلون في أعالي الحجاز ، في منطقة وادي القرى . ومعلومات الأخباريين هنا ، تبدو مستلة من شعر النابغة نفسه . فقد أشار النابغة ، وهو يخاطب ذبيان عامة وبني مرة خاصة ، إلى أنهم قد نفوا قومه («ليهنئ لكم أن قد نفيتم بيوتنا[50]») ، ونفهم منه في موطن آخر ، وبالتحديد في قصيدته التي يذكر فيها «المحاش» أنه وقومه ، بني يربوع بن غيظ ، قد تركوا نسبهم في ذبيان ودخلوا في بني عذرة ثم في بني تميم بن ضنة[51] :

جَمّعْ مَحاشَكَ يا يَزيدُ فَإنّني ... أعْدَدتُ يَربُوعا لكمَ وَتَميما

وَلحقْتُ بالنسْب الذي عَيَّرْتَني ... وَتَركْتَ أصْلَك يا يَزيدُ ذَميما

حَدَبَتْ عَلى بُطونُ ضنَّة كُلُّها ... إنْ ظَالما فيهمُ وإنْ مَظْلُوما

من الصعب ، إذن ، ألا يعتقد المرء بأن انتهاك حصين بن ضمضم لميثاق الصلح الذي جاهد آل أبي حارثة من أجله عقده بني عبس وذبيان هو المسؤول عن اضطراب علاقة بني يربوع بن غيظ بآل أبي حارثة ، كما يكشف عنه شعر النابغة . ومن الجدير بالملاحظة أن الحقائق الزمنية تؤيد هذه النتيجة وتعززها . فالحدثان كلاهما ، أي انتهاك حصين بن ضمضم لميثاق الصلح واضطراب علاقة بني يربوع بن غيظ بقومهم ، إنما يعود إلى فترة واحدة ، وهي الفترة التي أعقبت يوم جبلة المشهور في وقت مبكر من تسعينيات القرن السادس للميلاد[52] . إذ من الثابت ، كما يبدو أن الصلح المذكور كان قد أبرم بعد خروج عبس من حلف بني عامر ، وهو الحلف الذي ألزم العبسيين بالقتال إلى جانب بني عامر في يوم جبلة[53] ؛ وحديث النابغة عن تحالف ضد قومه يديره أبناء سنان بن أبي حارثة يدل ضمناً على أنه يشير إلى حدث وقع بعد زمن من يوم جبلة ؛ لأن سيادة بني مرة كانت ، حين ذلك اليوم ، في يد سنان بن أبي حارثة نفسه ولم تؤل بعد إلى أبنائه .

## ج

إذا كان اضطراب العلاقة بين قوم النابغة وإخوتهم من ذبيان متصلاً بحرب داحس والغبراء ، فإن هذه الحرب لم تكن بلا ارتباطات سياسية ، ومن ثم ينبغي أن يتم التعامل مع كل تداعياتها على هذ الأساس ، ومن بينها حلف «المحاش» في الصورة التي يظهر فيها في شعر النابغة . فحرب داحس والغبراء تعود في أصولها إلى اجتماع في بلاط النعمان بن المنذر ، حيث ظهر ما يدل على أن هذا الأخير نقل سيادة غطفان من عبس إلى فزارة في أعقاب مقتل زهير بن جذيمة العبسي على يد بني عامر بن صعصعة في يوم النفراوات ، وجعلها في حذيفة بن بدر الفزاري[54] . وقد تعاظم الخلاف بين عبس وفزارة إلى أن وصل ذروته في يوم الهباءة . ففي هذا اليوم قتل العبسيون حذيفة بن بدر ، وبذلك لم يستثيروا حفيظة بني مرة الذين تشير الأدلة إلى أنهم دخلوا منذ ذلك الحين دخولاً كاملاً إلى جانب فزارة حَسْب[55] . بل أيضاً ، وهو الأهم ، حفيظة النعمان ابن المنذر ،

الذي رأى في مقتل نائبه علي غطفان تحدياً صارخاً لسلطته في نجد[56] . ولهذا وجدنا العبسيين بعد ذلك يتنقلون في الأراضي الواقعة في مجال نفوذ النعمان في الجزيرة العربية ، باحثين عبثاً عمن يقدم لهم الحماية من قبائل العرب[57] . ولم يعد أمامهم خيار حقيقي سوى اللجوء إلى إحدى القوتين المناوئتين للحيرة هناك : الغساسنة في سوريا أو حلف بني عامر المتنامي في نجد ، وكلاهما عدو قديم ، وتشير الأدلة إلى أنهم اتصلوا فعلاً بكلتا القوتين[58] ، ولسبب ما ، فضلوا الدخول في حماية بني عامر[59] .

لكن الهزيمة المنكرة التي مني بها النعمان وحلفاؤه النجديون من أسد وذبيان وتميم والرباب في يوم جبلة المشهور جعلته يدرك مدى ما أضافه العبسيون من قوة إلى تحالف بني عامر[60] ، فأعاد النظر في تقديره لعواقب حرب داحس والغبراء على نفوذه في نجد . وربما لم يكن النعمان يظن أن بني عبس سيراودهم أدنى تفكير في طلب الحماية من بني عامر ، ودماؤهم التي هريقت بسيوف هؤلاء لم تجف بعد . وهكذا ، كما تشير الأدلة[61] ، استخدم نفوذه لإنجاح المساعي المبذولة لإعادة العبسيين إلى صفوف غطفان . ولهذا السبب ، كما يبدو ، نجحت هذه المساعي ، في حين أخفقت مساع أخرى مماثلة كانت قد بذلت قبل يوم جبلة .

في ضوء هذه القراءة لمتعلقات الصلح بين عبس وذبيان ، إذن ، فإن أقل ما يوصف به اعتداء حصين بن ضمضم على بني عبس أنه مخالف لمصالح استراتيجية للنعمان بن المنذر في نجد ، وهي مصالح تتفق مع تطلع قيادة غطفان إلى إضعاف معسكر بني عامر . والمصادر لا تقدم تفاصيل كافية توضح لنا سر التشدد في موقف حصين . في الواقع تشعرنا المصادر بالتناقض حين تدعي أن حصينا أبى الدخول في الصلح وأضمر الأخذ بالثأر . فإذا كان أضمر الأخذ الثأر فظاهره ، إذن ، كان قبول الصلح ، وهو ما يفهم من الشعر السابق إيراده ، ذلك الذي يقوله أحد العبسيين ويدعو فيه إلى التبرؤ من بني غيظ ، وبالأخص من بني يربوع بن غيظ ، لأنهم قتلوا قومه «بحد المواثيق والعهد» . وعلى أية حال ، فإن سجل داحس والغبراء يدل على أن عشائر بني مرة عموما لم تتكبد خسائر

بشرية في تلك الحرب ؛ فبنو يربوع بن غيظ هم الوحيدون من بني مرة الذين تكبدوا فيها خسائر من هذا النوع ، إلى جانب فزارة ، فقط . وربما لم يكن ضمضم بن ضباب وابنه هرم هما وحدهما اللذان قتلهما بنو عبس من بني يربوع بن غيظ ، كما يفهم من ظاهر الروايات . فما يقال في أعقاب القتل في ساحة المعركة من رثاء جدير بالحفظ إنما يقال في السادة الكبار دون سواهم ؛ ومعلومات الأخباريين مستنبطة أساساً من الشعر المحفوظ . فالإشارة إلى قتل ضمضم ، أبي حصين ، وردت في معلقة عنترة[62] ، والإشارة إلى قتل هرم بن ضمضم وردت في قصيدة منسوبة إلى أخته ناجية بنت ضمضم ، تحتفظ المصادر منها ببيتين[63] ، لكن النابغة ، في قصيدة له تسجل ، كما يبدو[64] ، حادثة مقتل هرم بن ضمضم ، يشير إلى عدد من القتلى قتلهم بنو زنباع ، عشيرة السيد العبسي المشهور الحكم بن مروان القَرَظ بن زنباع[65] ، وثأر لهم بنو عدي بن فزارة ، الذين ينحدر منهم آل حذيفة بن بدر :

صَبْراً بَغيض بنْ رَيْث إنّها رحمٌ ... حُبْتُمْ بها فأناخَتْكُمْ بجعْجاع

فمَا أَسَاءَتْ عَديٌّ إن هُمُ قَتَلُوا ... بَنى أسيد بقَتْلَى آل زنْباع

لَقَدْ جَزَتْكُمْ بَني ذُبْيانَ ضَاحيَةً ... بما فَعَلْتُمْ كَكَيْل الصاع بالصّاع

جَزّا بجزٍّ وقَتلاً مثلُ قَتْلكُمُ ... مَهْلاً حُمَيْضُ فَلا يُسْمى بها السّاعي

إذا كان هذا التحليل صحيحاً فإن اختلاف حصين بن ضمضم مع سائر عشائر بني مرة ، وذبيان عامة ، كان يمس هيبة بني يربوع بن غيظ عموماً . ويمكن أن نلحظ في شعر النابغة نفسه شعوراً عميقاً بالسخط ، وإذا كان البيت الأخير يتضمن إشارة إلى مساعي صلح فإن شعور النابغة بالسخط كان مصحوباً بمعارضة أية مساع من هذا القبيل[66] . ومن الواضح أن قدر حصين بن ضمضم كان عظيماً في بني يربوع ، بحيث إن مقتل جماعة من أهل بيته كان وحده حريّا بأن يثير غضب قومه أجمعين ويحملهم على الالتفاف حوله ، وإن كان في ذلك خروج على قرارات القبيلة الأم ، وعصيانه لأوليائها السياسيين ، وتجاهله

لمصالحهم في نجد . ويمكن أن نستخلص من الرواية الخاصة بحلف «المحاش» ومن أشعار النابغة المتعلقة بالخلاف بين قومه وسائر ذبيان أن حربا قد وقعت بين الطرفين ، أو أنهما ، على الأقل ، كانا يستعدان للحرب .

وربما حانت الآن الإشارة إلى قصيدتين ملغزتين في ديوان النابغة . فالقصيدتان السابعة والثلاثون والتاسعة والأربعون ، على النقيض من كل قصائده الأخرى في النعمان بن المنذر ، تنطويان على تحد لهذا الأخير . ففي الأولى ، يخاطب النابغة «أبا قابوس» ، النعمان بن المنذر ، ملوحاً له بعزة قومه ورفضهم الظلم واندفاعهم إلى القتال واستهانتهم بالموت ، وتمرسهم بالانتصار ، فضلاً عن تفضلهم بأموالهم على الناس في أوقات الشدائد :

أَبْلِغْ لَدَيْك أبا قابُوسَ مَألكَةً ... الواهبَ الخَيْلَ والقَيْنات والنّعَما

نلْوي الرُّؤوس إذا ريمَتْ ظُلامَتنا ... وَنَمْنَحُ المالَ في الإمْحال والغَنَما

ونُلْبِسُ الدَّهمَ ذا الماذيّ ضاحيَةً ... بالدُّهم ثمّةَ نَغْشَى الموتَ والقَتَما

وَنَقْتُلُ الكَبْشَ بَعْدَ الكَبْش نأسره ... قِدماً ونَضْربُ في حَوْمائها قُدُما

وفي القصيدة الثانية ، يمنُّ النابغة علي النعمان أن قومه كانوا يمدونه بالرجال والخيل كلما عبأ الجيوش للحرب ، وأنهم كانوا يحتملون ما يصيبهم في سبيل طاعته ، ويطلب منه ، في هذا السياق ، أن يتريث ولا ينسى تلك الخدمات ، وأن يتحلل مما صمم عليه :

ولا تَنْسيَن فينا نَصيبَكَ واذْكُرَنْ ... تصلّينا في العارض المُتضَرّم

ورفْدَتْناكَ الخَيْلَ والرّجلَ كُلَّما ... رَفعْتَ العقابَ في الخميس المُسوّم

فلا العبد بالعَبْد الذي لَيْسَ مُعْتبا ... ولا أنتَ بالربِّ الألَدّ المُصَمّم

ويبدو واضحاً ، في ضوء ما سبق ، أن هاتين القصيدتين تعودان إلى بداية الخلاف بين بني يربوع بن غيظ وقيادة ذبيان . وإذا كان الأمر كذلك ، فهي تؤكد الضرر الذي ألحقه هذا الخلاف بعلاقتهم بالحيرة .

وعلى أية حال ، فالحقيقة التي تبدو ثابتة الآن هي أن انشقاق بني يربوع ابن غيظ عن قومهم كان منعطفاً في تاريخهم . فقد رحلوا عن ديار القبيلة في نجد ، ودخلوا في حماية بني عذرة بن سعد هذيم في شمالي الحجاز[67] . ولم يكن هذا المنعطف قبليّاً وجغرافيّاً فحسب ، بل كان سياسياً أيضاً ؛ فالانتقال من نجد إلى شمالي الحجاز كان يعني ، على الصعيد السياسي ، الخروج من دائرة نفوذ الحيرة والدخول في دائرة نفوذ الغساسنة[68] . في الواقع ، كانت أراضي الغساسنة خيارهم الوحيد بالنظر إلى ما كان بينهم وبين بني عامر من عداء مستحكم عبر عدة سنوات مضت ، وكذلك بالنظر إلى الارتباطات اللخمية للقبائل الأخرى في نجد والبحرين والعراق وأواسط الحجاز[69] . ولعل ما يذكره ابن قتيبة من أن النعمان بن المنذر غضب على النابغة لأنه ترك قبيلته وأقام في الغساسنة يمدحهم[70] إنما هو شذرات من القصة الحقيقية للخلاف بين الطرفين معزولة عن سياقها .

ولم يكن بنو يربوع بن غيظ هم الوحيدين في غطفان (فضلاً عن القبائل الأخرى) الذين تحولوا إلى الغساسنة بعد أن اضطربت علاقتهم بالحيرة أو بالقبائل الموالية لها . فكل الأدلة تشير إلى أن بني عبس ، بعد أن قتلوا حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الهباءة درسوا ، في مرحلة ما ، إمكان الدخول في حماية آل جفنة وارتحلوا بالفعل ، يريدون الشام ، لولا أن بني عامر ، كما تدعي بعض الروايات ، راسلوهم ودعوهم إلى أن ينزلوا في جوارهم وفق شروط يرضونها[71] . وكذلك فعل الفاتك المشهور الحارث بن ظالم ، وهو أحد سادة بني يربوع بن غيظ أنفسهم . فحين ساءت علاقته بالنعمان بن المنذر[72] ، وتشاءمت منه غطفان وطردته[73] ، اتصل بالغساسنة ولجأ إليهم طلباً للحماية[74] .

ولعل أهم حادثة في هذا الصدد حادثة تتعلق ببني سهم ، قوم الشاعر المشهور الحصين بن الحمام ، وكانوا ، شأنهم شأن بني يربوع بن غيظ ، يمثلون واحدة من أبرز عشائر بني مرة الذبيانيين . فالمصادر تتحدث عن خلاف وقع بين بني سهم بن مرة هؤلاء وإخوتهم من بني صرمة بن مرة ، وتطور إلى حروب

وثارات[75] . وفي هذا النزاع ، كما تشير المصادر ، كان بنو صرمة ، وهم أصحاب نفوذ واسع في غطفان[76] يحظون بمؤازرة قيادة ذبيان[77] ، في حين كان بنو سهم متحالفين مع جماعة من عمومة عذرة بن سعد ، وهو ما يؤكده شعر للحصين ابن الحمام المري[78] ، وكان مسوداً على بني سهم آنذاك . والمهم في الأمر هنا هو أن شعر الحصين هذا يكشف عن أن بني سهم اتصلوا بالغساسنة ، وتحالفوا معهم ، وتقووا بهم في حربهم تلك ضد أبناء عمومتهم في ذبيان . ففي قصيدة مشهورة قالها الحصين في بعض وقعاته مع ذبيان[79] يذكر أن اتباعه كانوا ، في تلك الواقعة ، مجهزين بسيوف ودروع من عطاء «محرق» (أحد أمراء الغساسنة) وأن هذه السيوف والدروع قد «أخلص قيون بصرى» في صنعها :

جَزَى اللّـه أفْنـاءَ العَشيـرة كُلّها ... بـدارةُ مَوْضـوع عُقُوقـاً ومأثَمـا
بَني عَمّنـا الأدْنَينَ منْهُـم ورَهْطَنـا ... فَزارة[80] إذارَامتْ بنا الحرْبُ مُعْظَمـا
ولَمّـا رأيتُ الـودَّ ليسَ بنـافعـي ... وإنْ كَـانَ يَوْمـاً ذا كَواكبَ مظْلما

إلى أن يقول :

يَطـأنَ مـنَ وَمـنْ قَصَـد القنـا ... جيـاداً فَمـا يَجْـريـنَ إلا تَقَحُّمـا
علَيْهـنَّ فتْيـانٌ كَسـاهُـمْ مُحَـرّق ... وكـانَ إذا يكْسـو أجـادَ وأكْرَمـا
صَفـائحُ بُصْـرى أخْلـصَتْهـا قُيـونُها ... ومُطَـردا منْ نَسْـج داوودَ مُبْهَـمـا

وتجهيز الغساسنة لبني سهم بالسلاح يتضح أيضاً في قصيدة أخرى للحصين بن الحمام ، يشير فيها مرة ثانية إلى «صفائح بصرى» رافضاً ومستنكراً بغي أبناء عمومته على قومه[81] :

ألا تَقْبَلـون النّصـفَ منـا وأنْتُـم ... بَنـو عَـمّنـا لا بَـلَّ هـامكُم القَطْـرُ
سَنَأبـى كَمـا تَأبُـونَ حتى تُلينكـم ... صَفائـحُ بُصْـرى والأسنّةُ والأصْـر

نحن ، إذن أمام حالة انشقاق أخرى في أوساط بني مرة ، أو بتعبير أشمل ، في أوساط ذبيان . وليس من الواضح أي الانشقاقين حدث أولاً[82] ،

لكن الأهم من ذلك هو ما يمكن استنتاجه من شعر النابغة من أن قومه ، بني يربوع بن غيظ ، كانت تربطهم ، أثناء انشقاقهم عن بني مرة ، علاقة وثيقة ببني سهم ، وأن هذه العلاقة بلغت حد التحالف ، كما يبدو[83] . فإذا كان الأمر كذلك فإن تطورات قضية حصين بن ضمضم كانت أخطر مما تتيح لنا المصادر معرفته من القراءة الأولى .

بالنظر إلى كل ما تقدم ، يمكن القول إن ما حدث للنابغة مع النعمان بن المنذر وما ترتب على ذلك من تحول النابغة إلى الغساسنة إنما ارتبط بتصدع داخلي في أوساط ذبيان كانت له خلفية سياسية . فقد انشق قوم النابغة ، بنو يربوع بن غيظ ، عن قبيلتهم الأم ، واضطربت علاقتهم بقيادتهما . ولما كانت هذه القيادة تدين بالولاء للنعمان وتمثل سلطته في الجزيرة العربية ، فإن انشقاق قوم النابغة كان في جوهره انشقاقاً عن الحيرة . ولذلك رأيناهم يتركون منازل ذبيان في نجد ويلتحقون ببني عذرة بن سعد في أعالي الحجاز ، حيث كان الغساسنة يتمتعون بنفوذ كبير .

وبالمثل ، يمكن النظر إلى عودة النابغة إلى النعمان بوصفها دليلاً حاسماً على تسوية الخلاف بين قومه وقيادة القبيلة ، ورجوعهم من ثم إلى ذبيان في النسب والدار . طبعاً ، هناك أدلة أخرى تؤكد هذه الحقيقة[84] ، لكن عودة النابغة تشير إلى أن تسوية الخلاف بين قومه وسائر القبيلة قد تمت والنعمان بن المنذر مازال في الحكم . هذه النتيجة العامة ، وهي تلغي ادعاءات الأخباريين عن سبب اضطراب علاقة النابغة بالنعمان ، وتصحح تصورات الدراسات المعاصرة في هذا الصدد ، لا تتعارض ، بالطبع ، مع الإشارة المتكررة في شعر النابغة إلى سعاية الواشين لإيغار صدر النعمان عليه[85] ، فتحول النابغة من الحيرة إلى الغساسنة هيّأ لحساده في حاشية النعمان فرصة مثالية للنيل منه . ولا ريب في أن محاولات الحساد لاغتنام هذه الفرصة قد استعرت حين رجع هو وقومه إلى ذبيان ، ومهد الطريق إلى الاتصال بالحيرة من جديد . والواقع أن شعر النابغة يتضمن إشارة شبه مباشرة إلى ارتباط وشايات حساده باتصاله بالغساسنة[86] :

لَئن كنتَ قَدْ بُلّغتَ عَنّي وشـايـةً لَمُبْلِغُكَ الـواشـي أغَـشُّ وأكْـذَبُ
ولكـنّني كُـنْتُ امْـرأ لـي جـانـبٌ منَ الأرْض فيـه مُسْتَـرادٌ ومَـذْهبُ
مُلـوكٌ وإخـوانٌ إذا مـا أتَـيْتُـهُـمْ أحْـكِّـمُ فـي أمـوالـهـمْ وأقَـرّب

ومع ذلك ، إذا كانت هناك أصول للروايات المتعلقة بوصف النابغة للمتجردة وبما وضع على لسانه من أهاج في النعمان ، فلابد أنها تمثل حالة نشأت بعد القطيعة بين الشاعر والملك .

د

إن المناقشة السابقة تحتم إعادة النظر ، أولاً ، في توقيت قصائد النابغة الذبياني في الغساسنة ، وثانياً في دلالتها على ماهية العلاقة بين الطرفين . فهذه القصائد ترينا ، في مجموعها ، أن النابغة كان على صلة وثيقة بالقضايا الخارجية لقبيلته ، بل إنه كان في قلب هذه القضايا . فإذا كان الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى تأريخ تلك القصائد في الفترة التي كان فيها هو وقومه ينزلون في بني عذرة بن سعد في شمالي الحجاز ، مفارقين لسائر ذبيان في نجد . وهذه الفترة بدأت ، حسب المناقشة السالفة ، في أواسط التسعينيات من القرن السادس للميلاد[87] ؛ وإذا كانت عبارة النابغة «لستة أعوام وذا العام سابع»[88] تشير إلى مدة انقطاعه عن النعمان وعن قبيلته في نجد ، وهو ما يفهمه المرء في ضوء الحقائق الجديدة [89] ، فيمكن القول إن فترة إقامة النابغة وقومه في بني عذرة بن سعد امتدت حتى مطلع القرن السابع للميلاد . قصائده في الغساسنة ، إذن ، وكلها تقريباً تنحصر في النعمان بن الحارث الأصغر (أو الأعرج[90]) وفي أخيه وخليفته ، عمرو بن الحارث (يدخل في ذلك قصائده في النعمان بن الجلاح الكلبي ، القائد البارز في جيش عمرو بن الحارث) ، إما أن تكون سابقة لتلك الفترة أو أن تكون تالية لها . وهذا الخيار الثاني يبدو غريباً لدى النظرة الأولى ، إذ يعني أن هذه القصائد تعود إلى ما بعد إقصاء النعمان بن المنذر عن الحكم في مطلع القرن السابع (604/602م) ، وهو ما يتعارض مع الاعتقاد الشائع الذي يؤرخها

في الفترة التي سبقت عودة النابغة إلى النعمان[91] ؛ لكن لا مناص ، الآن ، من الأخذ بهذا الخيار ، أي أن قصائد النابغة في الغساسنة تعود ، في عامتها ، إلى ما بعد وفاة النعمان بن المنذر .

فالنتائج التي توصل إليها نولدكه ، متكئاً على مصادر لاتينية وسريانية ، تجعل من غير الممكن توقيت بداية حكم النعمان بن الحارث قبل الأواسط ، أو ربما الأواخر ، من تسعينيات القرن السادس للميلاد[92] . في الواقع ، يرجح نولدكه أن تكون فترة حكمه قد بدأت في العقد الأول من القرن السابع[93] ، دون أن يقترح سنة محددة . وسواء تسلم النعمان زمام الحكم في أواخر القرن السادس أو في أول السابع ، فإن أخاه عمرا ، وهو الغساني الأبرز في شعر النابغة ، حكم بعد أخيه النعمان ، على ترجيح نولدكه[94] ، أي في العقد الأول من القرن السابع ، وامتد حكمه على الأرجح إلى وقت قريب من تخريب مملكة الغساسنة على يد خسرو أبرويز أثناء اجتياحه سوريا ومصر في سنة 614م .

هذه النتيجة فتحت عيوننا على بيت شعر للنابغة يحمل ، كما يبدو ، دليلاً حاسماً على التصور السالف بيانه للفترة التي كان فيها النعمان بن الحارث وأخوه عمرو يتوليان أمر الغساسنة في الشام .

فالنابغة يقول في مطلع إحدى قصائده في عمرو بن الحارث[95] :

لَقَدْ نَهيتُ بَني ذُبيانَ عَنْ أقُرٍ وعَنْ تَربّعهمْ في كُلّ أصْفارِ

أي أن عشائر ذبيان كانت تنتقل إلى وادي ذي أقر ، الخصب ، حين يحل الربيع[96] ، وأن شهر صفر كان يأتي في موسم الربيع في ذلك الوقت[97] ، وأن النابغة أشار عليهم بأن ينتهوا عن ذلك نزولاً عند تحذيرات الملك الغساني . نحن ، هنا ، كما هو واضح ، أمام معلومة في غاية الأهمية لتحديد الزمن . فموسم الربيع الذي يشير إليه النابغة يبتدئ ، عادة ، بالنسبة إلى منطقة نجد وما حولها ، في أواخر كانون الثاني أو أوائل شباط ، ويستمر حتى أواسط نيسان وربما أواخره ، حين يبدأ موسم الجفاف هناك . الآن ، بمقابلة التواريخ الميلادية

بالتواريخ الهجرية ، نجد أن شهر صفر كان ، في ذلك الوقت ، يأتي ما بين سنة 602/601م وسنة 609/608م[98] ، ولما كان بيت النابغة السابق يفيد بأنه مرت قبل ذلك الموسم عدد من مواسم الربيع كان فيها الذبيانيون يقضون شهر صفر في وادي ذي أقر ، فإن قصيدته التي منها هذا البيت ينبغي أن تؤرخ في وقت متأخر من العقد الأول من القرن السابع للميلاد (606 - 609م) ، لكن ليس بعد نهايته .

إن قصائد النابغة في الغساسنة ، إذن ، هي عموماً من نتاج الفترة التي تلت دعوته هو وقومه إلى قبيلتهم ذبيان (ومن ثم إلى الحيرة) ، في مطلع القرن السابع للميلاد[99] . وإذا كان الأمر كذلك فإنا نواجه ، هنا ، تحدياً آخر ، فعودة النابغة إلى ذبيان والحيرة ترتقي في مغزاها إلى مستوى التحول في الولاء السياسي ، وتعني تلقائياً أن النابغة أصبح منذ ذلك الحين في المعسكر المعادي للغساسنة ؛ ومادام الشاعر الجاهلي لسان قبيلته فكيف يمكن التوفيق بين الارتباطات السياسية والقبلية الجديدة للنابغة ، من ناحية ، ومدائحه في الغساسنة ، من الناحية الأخرى؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في سؤال آخر : هل شعر النابغة في الغساسنة يدخل في باب المديح كما يعتقد عموماً؟ وقد يطرح السؤال في صيغة أخرى : هل كان النابغة ، كما يظهر في هذا الشعر أول وهلة ، صديقاً للغساسنة حقاً؟ إن ما تم التوصل إليه في مقال نشر حديثاً عن الهوية الحقيقية لشخصية «عمرو بن هند» التي تتكرر كثيراً في الشعر الجاهلي ، فتح الباب أمام رؤية جديدة لشعر النابغة في الغساسنة[100] . فقد ثبت في هذا المقال أن «عمرو ابن هند» الذي يحذره النابغة في إحدى قصائده (رقم 35) من مغبة غزوه لقبيلته ذبيان ، إنما هو ، في الواقع ، عمرو بن الحارث الغساني ، وليس عمرو بن المنذر اللخمي كما يعتقد عموماً[101] . وهذه النتيجة ، بالإضافة إلى المناقشات السابقة ، تحتم إعادة النظر في ارتباطات قصائد النابغة في عمرو بن الحارث ، وهي تشكل ، تقريباً ، نصف شعره في الغساسنة[102] .

فهذه القصائد ، وتبلغ ستاً أو سبعا ، تقدم صورة مضطربة للعلاقة بين

عمرو بن الحارث وقبائل نجد والعراق ، وفي مقدمتها الحليفان أسد وغطفان ، ويمكن الآن القول باطمئنان كبير إن النابغة يقف فيها موقف المستشفع ، وإن وصف الأخباريين لها بأنها قصائد مديح ينبغي أن يؤخذ بالمفهوم الواسع للكلمة . فالنابغة ، هنا ، لا يختلف عن علقمة بن عبدة في بائيته التي أنشدها في حضرة الملك الغساني الحارث بن أبي شمر[103] ، ولا عن المثقب العبدي في هائيته التي أنشدها في حضرة النعمان بن المنذر اللخمي[104] ، ولا عن الأعشى في لاميته التي أنشدها في حضرة الأسود بن المنذر اللخمي[105] ، أخي النعمان ابن المنذر . ففي هذه القصائد الثلاث ، يلح الشعراء إلحاحاً مبالغاً فيه على قدرات المخاطب الحربية وشدة بأسه وقوة شكيمته ، ويتحدثون بإسهاب عن انتصاراته المتكررة على خصومه ، وعما أصاب هؤلاء من قتل وسبي وتشريد بسبب تحديهم سلطته ، وذلك قبل أن يتقدموا إليه بطلب العفو ، وفكاك وثائق الأسرى وإطلاق سراح السبي .

والنابغة يفعل الشيء نفسه في قصائده في عمرو بن الحارث ، لكنه ينهج نهجا متميزا . فهو ، في كل مرة تقريباً ، يؤكد أمام هذا الأخير أنه لم يأل قومه نصحاً بألا يعصوا أوامر الملك ، وألا يأتوا من الأعمال ما من شأنه أن يجر عليهم غضبه وانتقامه الشديد ، لكنهم كما يقول ، لم يستمعوا لنصيحته ، فكان أن وقعوا في شر أعمالهم . وينبغي ألا نفهم من هذا أبداً أن النابغة يعزل نفسه عن قومه أو يقف على الحياد ، وإنما هي طريقة لاستدرار عطف الملك ومناشدته ألا يعيده إلى قومه خائباً[106] . وربما كان لعلاقته الوثيقة بالغساسنة قبل تلك المرحلة أثر في اتباع هذا المنهج . وعلى أية حال ، جاء وقت ، كما تكشف إحدى قصائده في عمرو بن الحارث ، اضطربت فيها العلاقة جداً بين النابغة والغساسنة ، بحيث جاهر بعداوتهم وأنذرهم هم هذه المرة مغبة الاعتداء على ذبيان ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك سيجدون هؤلاء قد توحدوا واستعدوا للقائهم[107] .

ومن بين قصائد النابغة التي تدخل في باب علاقته بعمرو بن الحارث ثلاث قصائد[108] قالها في واحد من أهم قادة الغساسنة الحربيين في ذلك الوقت

ـ النعمان بن الجلاح الكلبي[109] . فهي تنحو منحى قصائده في عمرو بن الحارث . ويكاد ينعدم الشك في أن «النعمان» الذي يذكره النابغة في القصيدتين الرابعة والرابعة عشرة هو نفسه النعمان بن الجلاح الكلبي ، خلافاً لما يدعيه الأخباريون من أنه الملك النعمان بن الحارث . فبالإضافة إلى أن هاتين القصيدتين تتفقان في الموضوع والتوجه مع قصائد النابغة في عمرو بن الحارث والنعمان بن الجلاح ، فإنهما تخلوان تماماً من أي شيء يؤكد أن النعمان فيهما هو ملك غساني . وإذا ما صحت هذه الملاحظة فإن النعمان بن الجلاح يصبح ثاني شخصية غسانية ، بعد عمرو بن الحارث ، من حيث حضورها في شعر النابغة[110] .

وفي هذا السياق ، يمكن الإشارة إلى قصيدتين أخريين للنابغة تتبعان الخط السابق نفسه ، وهما القصيدتان التاسعة والخمسون والسابعة والستون . وفيهما يذكر النابغة قائداً مغيراً ملقباً إياه بـ«ابن هند» . وهو يسميه في القصيدة الثانية منهما (رقم : 67) «الحارث الحراب» وربما يكون «ابن هند» واحداً في القصيدتين ، وربما يكون في القصيدة الأولى هو عمرو بن الحارث ، وليس الحارث الحراب[111] . لكن مهما يكن من أمر فالحارث الحراب هذا هو ، على الأرجح ، ابن لعمرو بن الحارث[112] ؛ وإذا كان الأمر كذلك فالنابغة يذكره بوصفه أحد قادة جيش هذا الأخير ، وإلا فيذكره بوصفه تولى أمر الغساسنة بعد أبيه عمرو ، حين كانت العداوة مازالت قائمة بينهم وبين ذبيان . إذن ، من بين تسع عشرة قصيدة منسوبة إلى النابغة في الغساسنة هناك ست قصائد[113] يمكن وصفها بأنها تعبر ، من غير شك ، عن حسن صلته بهم وقربه منهم ، ومع أنها تساوي ثلث قصائده في الغساسنة ، إلا أنها ، في معظمها ، مقطوعات قصيرة تحتوي فقط على خمس ما بين أيدينا من شعره فيهم[114] ، وهي : قصيدة في مدح النعمان بن الحارث (رقم 33) ، وأخرى في مرضه (رقم 19) ، وقصيدتان في رثائه (رقم 32,22) ، وقصيدة في سلفه (رقم 34) ، وقصيدة في الغساسنة عموماً (رقم 15) . وهذه القصيدة الأخيرة ، حسب ما بقي منها (أربعة أبيات) ، لا تجري على نمط قصائده في عمرو بن الحارث ، فالنابغة لا يشير فيها إلى حرب ولا إلى غزو ، ولا يتحدث عن جبروت الغساسنة وشدة قهرهم ، بل

يصفهم بالمصابيح في الظلام ، وبالصبر على الشدائد ، وبنبل المحتد ، وبالتفضل على الناس ، وبالحلم الواسع ، وبالتطهر من الخطايا والذنوب . وهكذا يبدو من المرجح جداً أن يكون النابغة قد أنشأ هذه القصيدة في حضرة النعمان بن الحارث ، أو في حضرة سلفه على أبعد تقدير .

ربما تحتاج هذه الملاحظات حول شعر النابغة في الغساسنة إلى بحث مستقل لاستجلائها ، لكن حتى ذلك الحين يمكن إعادة تأطير هذا الشعر من حيث الزمن والتوجه ليكون أكثر انسجاماً مع منطق الحدث التاريخي ، فضلاً عن منطق ارتباطات الشاعر القبلية والسياسية . فعلاقة النابغة بالغساسنة ، كما تبدو في شعره ، تشغل فترة تمتد نحو عقد ونصف من الزمن ، تبدأ من أواسط تسعينيات القرن السادس للميلاد وتنتهي في أوائل عشريات القرن السابع . وقد شهدت تلك الفترة تحولاً بالغ الأهميّة في السياسة الفارسية في الجزيرة العربية ، وهو تحول تُوِّج بإقصاء اللخميين عن الحكم ، ومن ثم بتفكيك مملكة الحيرة في سنة 604/602م . ولم يكن هذا الحدث ليمر من غير أن يترك آثاراً سلبية كبيرة بالنسبة إلى حلفاء الحيرة القبليين ، وبخاصة تلك القبائل القاطنة في المناطق الشمالية الغربية من نجد (أسد ، غطفان ، طيّء) ، مجاورة لأعداء الحيرة التقليديين ، أي الغساسنة ، فقد اختفت السلطة السياسية التي كان توحدها وتحصنها وتعزز قدراتها الحربية وتزيدها هيبة في نفوس أعدائها . وبذلك أصبحت في موقف يغري خصومها التقليديين في الجوار ـ الغساسنة ـ بشن الغارات عليها لتجريدها من حقوق ومكاسب في الماء والمرعى كانت تدعيها حين كانت من المنعة بمكان أيام اللخميين[115] .

والنابغة نفسه ، كما عرفنا قبل قليل ، تعرضت حياته القبلية والسياسية لانقلاب خطير في الفترة نفسها . فقد انشقت عشيرته عن ذبيان والحيرة في أواسط التسعينيات من القرن السادس للميلاد ، ولجأت إلى بني عذرة بن سعد في أعالي الحجاز ، وبذلك دخلت في نفوذ الغساسنة ، وتولى النابغة تمثيلها في بلاط هؤلاء كما تولى في السابق تمثيل ذبيان كلها في بلاط اللخميين . لكن

النابغة ورجال عشيرته اصطلحوا مع قبيلتهم الأم وعادوا إليها بعد سنوات من القطيعة ، وجددوا حلفهم مع الحيرة وأعلنوا ولاءهم لملكها آنذاك النعمان بن المنذر ، وكان في الأيام الأخيرة من حكمه . وهكذا أصبحوا بفعل هذه التطورات معرضين لصدامات مختلفة مع الغساسنة ـ أولياء الأمس .

هذه الانعطافات في تاريخ الجزيرة العربية وفي تاريخ ذبيان معاً تنطبق تماماً على الانعطافات في شعر النابغة . فقصائده التي تعبر عن علاقة وطيدة مع الغساسنة تمثل ملامح الرحلة التي كان فيها ينزل هو وعشيرته في بني عذرة بن سعد ، في دائرة نفوذ الغساسنة . وفي المقابل ، تمثل قصائده الأخري فيهم ، وهي في الاستشفاع عموماً ، ملامح المرحلة اللاحقة ، بعد عودته وسائر عشيرته إلى الالتحاق بذبيان ، ومن ثم إلى النهوض بمسؤولياته التي تفرضها عليه علاقته الجديدة بالقبيلة . وفيما يتصل بالمرحلة الأولى ، يستطيع المؤرخون الاستفادة من هذه النتائج في تقديم تحديد أدق لفترات حكم الغساسنة المتأخرين ؛ إذ يصبح من الواضح ، هنا ، أن سلف النعمان بن الحارث (الحارث الأصغر أو الأعرج) كان لا يزال على رأس ملكه في أواسط التسعينيات من القرن السادس للميلاد[116] ، وأن النعمان بن الحارث نفسه لم يتول الحكم إلا عند نهاية ذلك القرن . ومن جانب آخر ، ليس من الضروري أن نفهم أن مرثية النابغة في النعمان بن الحارث قد قيلت قبل عودة الشاعر إلى ذبيان في مطلع القرن السابع ؛ إذ من المحتمل أن يكون النعمان هذا قد توفى حول زمن سقوط مملكة الحيرة في سنة 602 أو 604م . ومهما يكن من أمر ، فلا شك في أن الغساسنة كانوا لا يزالون يحتلون موقعاً عميقاً في قلب النابغة يسوغ ما قاله فيهم وهو في موقف الاعتذار من خصمهم اللدود ، النعمان بن المنذر :

مُلوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم أحكَّم في أموالهم وأقَرّبُ

فوفاة النعمان بن الحارث ينبغي ، على هذا الأساس ، أن تؤرخ قريباً جداً من وفاة النعمان بن المنذر ـ قبلها بقليل أو بعدها بقليل .

أما المرحلة الثانية فتنسب إليها كل قصائد النابغة الدالة على علاقة متوترة

بين ذبيان والغساسنة ، سواء أكانت في عمرو بن الحارث ، وهي الأكثر عدداً ، أم في القائد العسكري النعمان بن الجلاح الكلبي ، أو فيمن يسميه النابغة «الحارث الحراب» . فكل واحدة منها تكشف عن سطوة مارسها الغساسنة في نزاعهم مع قبائل نجد ، وفي بعض الأحيان ، مع قبائل العراق ، وهي بذلك تتفق مع طبيعة الفراغ السياسي الذي نشأ في تلك المناطق في أعقاب سقوط مملكة الحيرة[117] .

وتجدر الإشارة إلى حقيقة مهمة تتصل بشعر النابغة القبلي ؛ فهذا الشعر يسوده اتجاه إلى تأكيد أهمية حلف أسد وغطفان ، وإلى مهاجمة المحاولات التي تستهدفه بالنقض والإلغاء[118] . وليس ذلك فحسب ، بل إن فيه دعوة إلى رأب الصدع بين القيسيين جميعاً ، ممثلين بأسد وغطفان من جانب ، وبني عامر وحلفائهم من الجانب الآخر[119] . وهناك أيضاً قصيدة تلح على أهمية عبس لذبيان[120] . هذه القصائد تعود جميعها ، على الأرجح ، إلى المرحلة الثانية (مرحلة ما بعد اللخميين) . فحالة الفراغ السياسي هي التي جعلت قبيلتي أسد وغطفان في أمسّ الحاجة إلى الإبقاء على تحالفهما كما كان قائماً زمن اللخميين ، وذلك لحماية مصالحهما ، لا ضد تحديات بني عامر وحلفائهم في قلب نجد فقط ، بل أيضاً ضد اعتداءات قبائل الشام الغسانية بغية الاستيلاء على مراعيها الخصبة في الأطراف الشمالية والغربية من الهضبة[121] ، مستفيدة من حالة الفراغ السياسي هناك . ومما يعزز هذا الرأي ، فيما يتصل بتحديد زمن تلك القصائد ، أن فكرة نقض الحلف بين أسد وعطفان ما كانت لتنشأ أصلاً لو كان اللخميون لا يزالون في الحكم[122] .

إن شعر النابغة في الغساسنة تسوده روح التوتر السياسي والقبلي ، وهذه حالة طبيعية مادام الشعر الجاهلي يسجل في جوهره تاريخ القبيلة ، في سماته الصدامية أساساً . لكن ما أصبحنا نعرفه الآن هو أن معظم هذا الشعر قيل بعد أن ودع اللخميون الحيرة إلى الأبد ، وأن مؤشرات الصداقة والعداء فيه أصبحت الآن تتخذ وجهة جديدة .

## الهوامش والمراجع

(1) تختلف تفاصيل القصة في المصادر باختلاف رجال السند ؛ فأبو الفرج الأصفهاني يقدم أوسع عرض لها ، في ثلاث سلاسل سند مختلفة ، بصرية وكوفية ، الأولى رأس سندها «أبو عبيدة وغيره من علمائهم» ، والثانية «يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء» ، والثالثة «المفضل الضبي» ، والرابعة «أبو عمرو الشيباني» (الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، ت356 هج) كتاب **الأغاني** ، دار الكتب ، القاهرة (1927 - 1974 ، ج11 ، ص8 - 14) . والبلاذري يقدم القصة بإسناد إلى المفضل الضبي ، ثم في موطن آخر يذكر معلومة عن المتجردة ، مستخدماً عبارة «وحدثت أن . . .» (البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت279 هج) ، **أنساب الأشراف** ، مخطوطة السليمانية (إسطنبول) ، رقم الإيداع : 597, 598) ، وانظر أيضاً : ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت 711 هج) ، **لسان العرب** ، بيروت 1955 - 1956 ، مادة : «نبغ» ؛ عبدالرحيم بن أحمد العباسي (ت963 هج) ، **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص** ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، بيروت 1947 ، ج1 ، ص334 - 337 ؛ البغدادي ، عبدالقادر بن عمر (ت93 -1 هج) **خزانة الأدب ولب لباب العرب** ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ج2 ، ص135 - 136 .

(2) شوقي ضيف ، **العصر الجاهلي** ، القاهرة ، 1960م ، ص272 .

(3) محمد زكي العشماوي ، **النابغة الذبياني** ، القاهرة 1968 ، ص82 ، وللاطلاع على وجهات نظر مشابهة ، انظر : **The Encyclopaedia of Islam**, New Edition, Leiden 1960-, s.v. al-Nabigha al-Dhubyani ومن الجدير بالملاحظة أن فوزي الأمين يقبل قصة المتجردة وشعر النابغة فيها ، لكن **على** أساس مناقشة تصويرية (**قراءة جديدة في شعر النابغة الذبياني** ، الإسكندرية ، 1989م ، ص32 - 34) .

(4) شوقي ضيف ، **العصر الجاهلي** ، ص272 ؛ العشماوي ، النابغة ، ص123 - 124 . حلف ذبيان مع الحيرة أشارت إليه دراسات أخرى كثيرة ، تاريخية وأدبية ، والذين أثاروا تساؤلات حول ثبات هذا الحلف اعتمدوا على الأخبار الخاصة بعلاقة قبائل نجد بمن كان يُظن حتى وقت قريب أنه عمرو بن هند اللخمي (انظر ، مثلاً : محمد عثمان علي ، **شعراء بني أسد إلى نهاية القرن الثالث الهجري** ، بيروت 1986 ، ص34 - 36) ، لكن اتضح الآن أن «**عمرو** بن **هند**» في **شعر** القبائل النجدية ، وفي مقدمتها أسد وغطفان ، هو شخصية غسانية (عرسان الرميني ، «عمرو ابن هند في الشعر الجاهلي» ، **أبحاث اليرموك** ، م17 ، ع2 (1999) ، ص144 - 154 .

(5) النابغة ، ص124 . يستخدم العشماوي عبارة : «يأتلف العدوين ، غسان والحيرة» ، وهو يقصد بالطبع العداوة فيما بينهما ، وليس عداوتهما لذبيان ، إذ إنه يدرك الحلف القديم والثابت بين الحيرة وذبيان (انظر مثلاً : «الصداقة بين بني ذبيان وملوك الحيرة كانت صداقة قديمة أصيلة ، وكانت أشبه بتحالف قوي وارتباط وثيق يحرص عليه الطرفان» ، ص119) ، وفي ضوء ذلك ، من الغريب أن يثير العشماوي شكوكا حول ما يراه الأخباريون من أن النابغة كان على صلة بالحيرة قبل أن يتصل بالغساسنة ، وهي شكوك قائمة على تصورات غريبة حول زمن تسلم كل من النعمان بن المنذر والحارث الأصغر زمام الحكم في الحيرة وبصرى ، على التوالي (السابق ،

ص17-20) ، وقد تبعه بعضهم في شكوكه تلك (**إيليا حاوي ، النابغة : سياسته وفنه ونفسيته** ، بيروت 1970 ، ص89,95-96 ؛ علي عطوي ، **النابغة الذبياني : شاعر المدح والاعتذار** ، بيروت ، 1990 ، ص118) . في مقابل ذلك ، قارن (فيما يتعلق بالنعمان) : سميث ، ص465 (الجدول) ؛ نولدكه ، **أمراء غسان من آل جفنة** ، ترجمة جوزي وزريق ، بيروت 1933 ، ص33-38) .

(6) العصر الجاهلي ، ص271-2 .

(7) يمكن رد بذور هذا التفسير إلى أحمد الشايب (**تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني** ، القاهرة ، 1976 (ط1 ، 1945) ، ص70-71 ، لكنه اتضح لدى شوقي ضيف ، وتعمق فيه العشماوي ، وترددت أصداؤه في دراسات لاحقة (انظر : جميل سلطان ، **النابغة الذبياني** ، بيروت ، 1971 ، ص17-18 ؛ محمد علي دقة ، **السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي** ، دمشق1989 ، ص57-58 ؛ محمد حمود ، **النابغة الذبياني** ، بيروت 1991 ، ص26 - 7 ؛ عبدالفتاح الشطي ، **شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي** ، القاهرة ، 1989 ، ص(194 - 197) 165 - 264 . أما الدسوقي ، الذي نشر دراسته عن النابغة قبل ذلك ، فيلتفت إلى خلو ديوان النابغة من مدائح في النعمان بن المنذر ، ويستنتج من ذلك أن أناساً سعوا لدى هذا الأخير فأوهموه أن النابغة لم يقل فيه مدحاً ترفعاً وأنفه ، وأنه لم يكن يراه أهلاً للمدح ، وإنه إنما كان يشايع الغساسنة (**النابغة الذبياني** ، القاهرة ، 1961م ، ص165) . لكن عدم وصول مدائح للنابغة في النعمان ينبغي ألا يكون دليلاً على أن مدائح كهذه لم توجد ، وعلى أية حال يشير النابغة ، في **اعتذارياته** إلى العطايا والهبات التي كان يغدقها عليه النعمان قبل أن يتركه ، وهذا دليل على مدائحه ، غير المروية ، فيه (الديوان ، ق15/27) . ومن الجدير بالملاحظة أن عمر شرف الدين لم يتناول هذه المسألة بتاتاً (**الشعر في ظلال المناذرة والغساسنة** ، القاهرة ، 1987م) .

(8) أمراء غسان ، ص43-44 ، وانظر فيما يلي ، حاشية 96-98 .

(9) قراءة جديدة في شعر النابغة ، ص15-19 .

(10) مثلاً ، يتبنى دون مناقشة ، ودون استشارة الدراسات المختصة ، رواية ابن الكلبي في توقيت يوم جبلة في سنة 551م (**قراءة جديدة في شعر النابغة** ، ص**30**) ، أي أربعين سنة قبل تاريخه الحقيقي (أنظر Ramini, **The Tribe of Tamim and the Origins of the Ealy Crisis in the Caliphate**, Ph, D. thesis,Cambridge University, 1989, p39 ، وقبل ثلاثين سنة مما يراه صاحب مقال «جبلة» في الموسوعة الإسلامية (**The Encyclopaedia of Islam**, First edition, s.v. Djabala) وإلى الانحراف الكبير في تصوره للأطر الزمنية للأحداث ، أضف أن مناقشاته في الغالب تصورية ، غير موثقة .

(11) ولذلك كان التلازم في العصر الجاهلي بين **الشعر** الفروسية ، إذ كان الفرسان هم الآخرون سادة أو أبناء سادة ، ولذلك أيضاً جاء **الشعر** الجاهلي مفعماً بالتعبير عن فضيلتي الشجاعة والكرم ، إذ إنهما الركنان الأساسيان للسيادة ، لاحظ قول المتنبي :

**لولا المشقة ساد الناس كلهم  الجود يفقر والإقدام قتّال**

(المتنبي ، أحمد بن حسين ، **الديوان** ، تحقيق عمر الطباع ، بيروت ، 1997م ، ق43/212) .

(12) أغاني ، ج11 ، ص3 ، وانظر أيضاً : ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى (ت685) ، **نشوة الطرب**

**في تاريخ جاهلية العرب** ، تحقيق نصرت عبدالرحمن ، عمان 1982 ، ص566 .

(13) **البغدادي** ، **عبدالقادر** بن **عمر** (ت1093 هج) خزانة الأدب ، ج8 ، ص415 .

(14) البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت 487 هج ، **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، القاهرة 1936 ، ص79 . وفي رواية الشنتمري : «حتى صار رجلا وساد قومه» (النابغة الذبياني ، **الديوان** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة (ط2) ، 1985 ، ص13) ، قارن **عمر** الدسوقي ، النابغة ، ص130-131 .

(15) نشوة الطرب ، ص566 .

(16) البلاذري ، أنساب ، ج1 ، ورقة 1093 ، ويبدو أن روايات من هذا النوع جعلت بعض الدارسين يصفون النابغة بأنه «سيد ذبيان» (محمد حمود ، النابغة ، ص23) .

(17) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد (456 هج) ، **جمهرة أنساب العرب** ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة 1962 ، ص253 ، لاحظ أيضاً ما يظهر في شعره من أنه ند لسادة جماعات قبلية أخرى .

(18) السابق ، ص252 (لاحظ أيضاً أن ابن حزم قدمهم في الحديث عن بني مرة) . وفي زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ظهرت غطفان في أكثر من موطن تحت قيادة عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف بن سنان بن أبي حارثة (ابن الأثير ، **تاريخ** ، ج2 ، ص180 - 226) ، الذي يقول فيه البلاذري : «جاء الإسلام والحارث بن عوف هذا سيد بني مرة» (أنساب ، ج1 ، ورقة 109) .

(19) **شرح ديوان زهير** بن **أبي سلمى** (صنعة الإمام أبي العباس ثعلب) ، القاهرة ، 1964م (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة 1944م) ، ص282 .

(20) انظر ، أمثلة من ذلك في : **النقائض** ، ص674 (يوم جبلة) ، 1067-1068 (يوم جزع طلال) ؛ ابن الأثير ، تاريخ ، ج1 ، ص582-580,576,563 ,643 ,644 (يوم ساحوق ويوم الرقم وحرب داحس) ؛ ابن عبدربه ، أبو **عمر** أحمد بن محمد (ت 328 هج) ، **العقد الفريد** ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، القاهرة ، 1940 - 1965 ، ج5 ، ص160 .

(21) لهذا السبب كان سنان بن أبي حارثة المري في بلاط النعمان حين وقعت مشكلة الحارث بن ظالم المري (انظر أغاني ، ج11 ، ص104 س2) .

(22) بسبب مدائحه فيهم تبوأ زهير مكان الصدارة في شعر المديح بين الشعراء الجاهلين .

(23) ابن حزم ، جمهرة ، ص256 .

(24) الآخران هما : بيت زرارة بن عدس من تميم ، وبيت ذي الجدين من بكر بن وائل (المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 286 هج) ، **الكامل في اللغة والأدب** ، تحقيق أحمد شاكر ، القاهرة ، 1936 - 1943 ، ص53 ، س9 ؛ ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 463 هج) ، **العمدة** ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، 1934 ، ج2 ، ص155 ، س18) .

(25) يصفهم ابن دريد بأنهم «بيت غطفان غير مدافعين» (الاشتقاق ، ص284) ، وتلقيب حذيفة بن بدر بـ«رب معد» (ابن الكلبي ، أبو المنذر هشام بن محمد (ت 4-2 هج) ، **جمهرة النسب** ،

تحقيق ناجي حسين ، بيروت 1986 ، ص432 ؛ بلاذري ، أنساب ، ج1 ، ورقة 112) يدل على عظم نفوذه في أوساط القبائل الشمالية عموماً ، ويبدو أن الحيرة قد أسندت إليه في وقت من الأوقات صلاحيات واسعة ، حتى استحق ذلك اللقب(انظر (1989) Ramini, pp. 20, 34f. , ) .

(26) انظر الحاشية السابقة .

(27) النقائض ، ص674 ، وقارن 239 س6 .

(28) يشير زهير بن أبي سلمى إلى سخط الغساسنة عليه ، وأيضاً إلى «حلول أحياء الأحاليف حوله» في الحرب ، دون أن يربط ذلك بيوم جبلة (الديوان ، ص143 - 144) . وانظر أيضاً رواية لأبي اليقظان تقول : «كان حصن من أعظم غطفان قيادة : قادة أسد وغطفان كلها . . قسم المغانم وهو متكئ على سبة قوسه» (البلاذري ، أنساب الأشراف ، ورقة 113) .

(29) وابنه عيينة بن حصن ، وقد رأس» (البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج1 ، ورقة 1128) .

(30) «وكان عيينة بن حصن سيدا ، أخذ المرباع في الجاهلية وخمس في الإسلام» (السابق ، ورقة 113) .

(31) انظر مناقشة تاريخ الغزوة التي قام بها عيينة ضد بني العنبر لحساب المسلمين في المدينة في Ramini, (1989), pp. 66 - 9

(32) انظر مناقشة جملة الواقدي الملغزة : «فدخل رسول الله مكة يومئذ بين الأقرع وعيينة» (الواقدي ، محمد بن عمر ، كتاب **المغازي** ، تحقيق M.Jones ، لندن 1966 ، ص4-8 ، س 4-5) في Ramini, (1989) ,pp. 77079 .

(33) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت31 هج) **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، 1967 ، ج3 ، ص256 - 257 (ومن رواية أخرى ، نفهم أنه كان على بني فزارة (نفسه ص255) .

(34) النابغة الذبياني ، الديوان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1985 ، ص102 .

(35) ابن سلام ، محمد بن سلام بن عبدالله الجمحي (ت232 هج) **طبقات فحول الشعراء** ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة 1974م ، ص108 (الحاشية) .

(36) النابغة الذبياني ، الديوان ، ص102 .

(37) ويورد الشنتمري رواية ، من غير أن يشير إلى مصدرها ، تقول : «والمحاش قبائل شتى تحالفوا عند النار على بني يربوع بن غيظ بن مرة ، رهط النابغة» (الشنتمري ، يوسف بن سليمان بن عيسى (ت 476 هج) ، **أشعار الشعراء الستة الجاهلين** ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، بيروت (ط3) ، 1983 ، ص236) .

(38) انظر فيما سبق ، حاشية 18 .

(39) الديوان ، ق1/28-4 ، لاحظ التقديم للقصيدة : «وقال أيضا فيما كان بينه وبين يزيد بن سنان بسبب المحاش» .

(40) الديوان ، ص21-22 .

(41) انظر ، مثلاً : البلاذري ، أنساب ، ورقة 1,96-8 (رواية المفضل الضبي) ؛ أغاني ، ج1 ، ص- 294 293 (رواية أبي عبيدة) ؛ شرح ديوان زهير ، ص3-4 ؛ الميداني ، مجمع الأمثال ، ج2 ، ص-522

521 ؛ البغدادي ، خزانة ، ج2 ، ص14-15 .

(42) البلاذري ، أنساب ، ورقة 1097 - 1098 ، وهي رواية أبي عبيدة أيضاً ، مع اختلاف طفيف في بعض التفاصيل (أغاني ، ج1 ، ص293 - 294) . وانظر البغدادي ، خزانة ، ج3 ، ص14-15 .

(43) البلاذري ، أنساب ، ورقة 1096 .

(44) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت421 هج) ، **مجمع الأمثال** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت 1978 ، ج2 ، ص521 - 522 .

(45) هذا واضح من قوله : «نعم الحي جرّ عليهم» ، فالحي هنا هم بنو مرة أو بنو غيظ بن مرة ، قوم الممدوحين ، ولا يتحمل القوم جريرة من هو ليس منهم .

(46) ابن منظور ، مادة : ج ر ر .

(47) على أية حال ، الروايات الأخرى («لم تَفْرَع بيوت كثيرة» ، «لم يُفْرِع بيوتاً كثيرة» ، «لم يُنْظر بيوتا كثيرة») لا تغير في جوهر تفسير البيت (انظر : شرح ديوان زهير ، ص23 (لاحظ الحاشية) ؛ أشعار الشعراء الستة ، ص284 ؛ وقارن الزوزني ، أبو عبدالله الحسين بن أحمد (ت 486 هج) ، **شرح المعلقات السبع** ، بيروت ، 1979م ، ص114 (حاشية)) .

(48) ابن حزم ، جمهرة الأنساب ، ص253 .

(49) ديوان النابغة الذبياني ، ص102 .

(50) الديوان ، قصيدة 5/28 .

(51) ولاحظ أيضاً رواية ينقلها لويس شيخو تقول : «وكلهم يقول إن النابغة وأهل بيته من قضاعة ، وكانت قضاعة تحولت إلى اليمن ، ثم من عذرة ثم من ضنّة» (**شعراء النصرانية** ، ص709) لكن يشير ابن حزم إلى رأي لعلماء النسب ، مفاده أن بني يربوع بن غيظ ينحدرون من ضنّة بن سعد هذيم ، وذلك في حين يشير إلى وجود بطن من بني عذرة بن سعد هذيم يدعي «ضنّة ابن كبير بن عذرة بن سعد هذيم» (جمهرة النسب ، ص447 - 448) . وإذا أمكن التوفيق بين الروايتين فيمكن أن يكون عن طريق اقتراح أن تميم بن ضنّة بن سعد هذيم دخلوا في ضنة بن كبير بن عذرة .

(52) انظر مناقشة هذه الحادثة في Ramini, (1989), pp. 39 - 40 .

(53) ابن الأثير ، تاريخ ، ج1 ، ص583 .

(54) هذا ما يمكن استنتاجه من رواية فريدة يقدمها البلاذري حول بداية الخلاف بين عبس وذبيان (أنساب ، ورقة 1122) . وانظر مناقشة الرواية في Ramini, (1989), p.20 .

(55) على الرغم من أن رواية حرب داحس تشعر بتورط آل أبي حارثة فيها منذ البداية ، هناك ما يدل على أن مشاركتهم الحقيقية جاءت بعد يوم الهباءة (انظر ابن الأثير ، تاريخ ، ج1 ، ص58 س1 وما بعده) .

(56) يبدو أن النعمان بن المنذر ، وليس حذيفة بن بدر ، هو المقصود في هذين البيتين المنسوبين أحياناً إلى النابغة وأحياناً أخرى إلى رجل آخر من غطفان :

جزى الله عبسا عبس آل بغيض  جزاء الكلاب العاويات وقد فعل
بما انتهكوا من رب عدنان جهرة  وعوف ينـاجيهم وذلكم جلل

(الميداني ، رقم 2925) قارن ابن الكلبي ، جمهرة النسب 432 س1 .

(57) انظر الحديث عن مساعيهم الفاشلة للبحث عن مكان آمن بين قبائل العراق والبحرين ونجد قبل أن ينتهي بهم التطواف إلى بني عامر (محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، أيام العرب في الجاهلية ، بيروت ، 1988 ، ص266 - 268) .

(58) المرجع السابق ، ص268 .

(59) انظر فيما يلي ، حاشية 66 .

(60) الأخباريون أنفسهم أدركوا ذلك حين نصوا على ما نفهم منه أن تغييرات جذرية طرأت على الاستعدادات للحملة ضد بني عامر حين وصلت الأخبار عن دخول العبسيين في حلف معهم (ابن الأثير ، تاريخ ، ج1 ، ص583) .

(61) انظر علاقة سادة يثرب ـ وكانوا آنذاك يدينون بالولاء للحيرة (Ramini, 1., (1989), pp. 33-34) ـ بالعداوة بين النعمان بن المنذر وبني عامر بن صعصعة ، وبمحاولات إصلاح ذات البين بين عبس وذبيان (بلاذري ، أنساب ، ورقة 1125,1121) ، ومع ذكر هذه المحاولات يأتي في سياق الحديث عن بواكير النزاع بين الطرفين ، فلا بد أنها تكثفت بعد ذلك ، حين اتضح إضرارها بمصالح الحيرة .

(62) ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزراً لخامعة ونسر قشعم

(عنترة بن شداد ، **الديوان** ، تحقيق محمد سعيد مولوى ، بيروت 1983 ، قصيدة 1 ، أبيات 83 - 85) .

(63) يا لهف نفسي لهفة المفجوع ألا أرى هرما على مودوع
من أجل سيدنا ومصرع جنبه علق الفؤاد بحنظل مجدوع
(أغاني ، ج17 ، ص2,3) .

(64) انظر خبر مقتل هرم بن ضمضم ، هو وجماعة من بني مرة ، في الأغاني ج16 ، ص31-34 ؛ وقارن ديوان عنترة ، ق14 .

(65) ابن حزم ، جمهرة ، ص251 .

(66) هناك أبيات يقولها النابغة في بيان أهمية عبس لذبيان (الديوان ، ق17) ، وشراح الشعر يفسرون هذه الأبيات إزاء أحداث حرب البسوس (السابق) ، لكن ألا ينبغي تفسيرها إزاء أحداث وقعت في فترة لاحقة بعد أن تصالح الطرفان (انظر فيما يلي ، ص22) .

(67) قصة «المحاش» وما يرتبط بها من شعر يمثل دليلاً مباشراً على ذلك ، ويمكن الإشارة أيضاً إلى شعر يظهر فيه النابغة كأنه يتحدث من موقع شاهد عيان عن علاقة بني عذرة بن سعد بمياه قراقر في أعالي الحجاز (المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد (ت412 هج) ، **شرح حماسة أبي تمام** ، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، القاهرة 1962 ، ص17-2-17) .

(68) بالاضافة إلى دلالة المناقشة السابقة حول ارتباطات قوم الحصين بن الحمام ، تجدر الاشارة إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بني عذرة بن سعد بالأحباش ، حلفاء الغساسنة ، حين كان الأحباش يتولون زمام الأمور في اليمن والحجاز في الفترة الوسيطة من القرن السادس للميلاد

(أنظر جواد علي ، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ج4 ، ص237 ، Smithe, S., "Events in Arabia in the Sixth Century A.D., **Bulletin of the School of Oriental and African Studies,** (خريطة سميث السياسية للجزيرة العربية في ذلك القرن) .

(69) بخصوص امتداد نفوذ النعمان إلى الحجاز ، انظر Ramini, 1., (1989), pp.33-4 .

(70) ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم (ت276) ، **الشعر والشعراء** ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، 1966 ، ص70 .

(71) انظر أيام العرب في الجاهلية ، ص268 .

(72) أغاني ، ج11 ، ص295 - 296 .

(73) نشوة الطرب ، ص561 ، وفي الخبر نفسه أن الحارث انتفى من غطفان بعد ذلك وانتسب إلى قريش ؛ وهذه الحقيقة يؤكدها شعر يروى للحارث (مفضليات 618 - 619) .

(74) البلاذري ، أنساب ، ج1 ، وقرة 1100 .

(75) حول الحادثة عموماً ، انظر مثلاً : مفضليات ، ص79 ,103 - 104 ,621-622 ؛ أغاني ، ج14 ، ص2 - 5 ؛ بلاذري ، أنساب ، ورقة 1107 - 1108 ؛ شيخو ، شعراء النصرانية ، ص734 - 735 ، وانظر الحادثة في معرض تحقيق لامية بشامة بن الغدير المري ، المشهورة (ابن الشجري ، مختارات ، ص55 (حاشية) .

(76) يذكر اسم حرملة بن الأشعر الصرمي وابنه هاشم بين من سعوا في حمالة الصلح بين عبس وذبيان ، في بدايات الحرب كما يبدو . لكن عظم نفوذ هذين السيدين يظهر من قول الشاعر :

أحيا أباه هاشم بن حرملة يوم الهباءة ويوم المربلة

ترى الملوك حوله مرعبلة يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

(البلاذري ، أنساب ، ورقة 1109) .

(77) إن ما يقوله فوزي الأمين عن محاولات الفزاريين تفريق صف بني مرة ، كي يضمنوا لأنفسهم الاستمرار في السيادة على ذبيان (قراءة جديدة في شعر النابغة ، ص7-8) استنتاج ذكي ، لكنه ليس ضرورياً ، إذ إنه في الوقت الذي لا يفسر فيه شيئاً يتجاهل حقائق أساسية تدل على وحدة الطرفين .

(78) أغاني ، ج12 ، ص128 .

(79) مفصليات ، ق12 .

(80) هنا دليل على تحالف مرة وفزارة (ذبيان) على بني سهم ، ووقوفهم إلى جانب بني صرمة .

(81) أغاني ، ج14 ، ص5 .

(82) بصرف النظر عن الرواية التي تجعل لسنان بن أبي حارثة ضلعا في خلاف بني سهم على قومهم ، ومن ثم تشعر بأقدمية هذا الخلاف (أغاني ، ج14 ، ص5) ، إذ تجمع هذه الرواية بين سنان وعيينة بن حصن ، وهذا الأخير لم يظهر على مسرح الأحداث قبل نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادي ، في حين اختفى سنان في وقت مبكر في تسعينيات القرن السادس . وعلى هذا الأساس ينبغي إهمال الأسماء في الرواية المذكورة .

(83) هذا ما يشعر به قول النابغة :

فلو شهدت سهم وأفناء مالك فتعذرني من مرة المتناصره

لجاءوا بجمع لم ير الناس مثله تضاءل منه بالعشى قصائره

(الديوان ، ق4,3/28) ، ومن الجدير بالملاحظة أن الحصين بن الحمام ، حين يعدد خصومه من بيوتات ذبيان في قصيدته الميمية المتصلة بالحادثة ، لا يذكر بني يربوع بن غيظ .

(84) وفي مقدمتها القصائد التي أنشدها النابغة في الدفاع عن ذبيان وأسد ضد بني عامر ، وإذا كان قسم منها يتعذر معرفة ما إذا كان قد قيل بعد سقوط مملكة الحيرة أو قبل ذلك ، فإن تلك القصائد التي قيلت في سادة عاصروا النبي ، وبعضهم شهد خلافة عمر أو عثمان ، مثل عامر ابن الطفيل وعيينة بن حصن ولبيد بن ربيعة (الديوان ، ق20 ,23 ,38) يمكن تأريخها بعد ذلك .

(85) انظر الديوان ، ق1/37-40 ، ق2/14-20 ، ق7/9-10 ، ق8/401 ، ق49/3 ، ق75/36 .

(86) الديوان ، ق8/4-6 .

(87) انظر أعلاه ، حاشية 53,52 .

(88) الديوان ، ق2/3 .

(89) يذكر النابغة في البيتين الأولين من قصيدته العينية أماكن بقي يتوهمها (تمر بخياله) طوال سبعة أعوام ، كما يقول في البيت الثالث (السابق) ، هذه الأماكن تقع في نجد ، في ديار ذبيان (ياقوت بن عبدالله الحموي (ت626 هج) **معجم البلدان** ، تحقيق وستنفيلد ، ليبزج ، 1873-1866م ، مادة : أريك ، ذو حسا) .

(90) يرجح نولدكه أن الحارث الأعرج هو ابن الحارث الأصفر ، ويرجح في مكان آخر أن الحارث الأصفر هو والد النعمان بن الحارث ممدوح النابغة (أمراء غسان ، ص38-41) مهملاً ، كما يبدو ، بعض الروايات التي تدعى أن النعمان هو ابن الحارث الأعرج (انظر البكري ، سمط ، ص556 ، وقارن البغدادي ، خزانة ، ج2 ، 322 ، ج3 ، ص329) .

(91) ومن هذا المنطلق يتحدث العشماوي عن علاقة النابغة بالغساسنة (النابغة ، ص23 - 67) قبل حديثه عن علاقته بالنعمان بن المنذر (السابق ، ص69 - 142) ، حتى إنه يرى أن اتصاله بالغساسنة كان قبل اتصاله بالنعمان ، وتابعه الشطي على ذلك (شعراء إمارة الحيرة ، ص- 189 188) .

(92) يشير نولدكه إلى مجموعة من الأحداث وقعت للغساسنة على إثر إلقاء البيزنطيين القبض على ملكهم المنذر بن الحارث بن جبلة ، ومن بينها تفكيك مملكتهم واندلاع ثورات قادها شيوخهم ضد الإمبراطور البيزنطي ، وحين أعيد الغساسنة إلى الحكم لم يكن النعمان بن الحارث هو المتولي أمرهم آنذاك ، بل أبوه الحارث الأصفر (نولدكه ، ص34 وما بعدها) .

(93) وذلك بناء على خبر له مع حصن بن حذيفة الفزاري ، إذ يرى نولدكه أن ابن هذا الأخير ، عيينة كان نشطا في آخر حياة النبي وتوفى في خلافة عمر بن الخطاب ، وما دام الأمر كذلك فلابد أن يكون أباه قد ساد في أوائل القرن السابع (نولدكه ، ص42 - 43) هذا صحيح لكنه غير كاف لدعم استنتاجه ، فحصن بن حذيفة كان سيدا لغطفان حين وقع يوم جبلة في عهد النعمان بن المنذر ، في وقت متأخر من القرن السادس .

(94) أمراء غسان ، ص43-44 ، وسوف تؤكد المناقشة فيما يلي صحة ترجيح نولدكه ، في مقابل الرواية الشائعة التي تجعل حكم عمرو وقبل حكم أخيه النعمان .

(95) الديوان ، ق19 ، في تقدمة الشنتمري للقصيدة ما يدل على أنها قيلت في النعمان بن الحارث ، لكن فيها أيضاً ما يدل على أنها قيلت في أخيه عمرو (**أشعار الشعراء الستة الجاهلين** ، ص222 - 221) ، وفي التقديم للقصيدة التي تليها (رقم 10) ، نسبت تلك الحملة العسكرية إلى عمرو ابن الحارث (السابق ، ص224 (حاشية 15)) . وانظر أيضا ما يأتي من مناقشة .

(96) «التربع» الإقامة وقت الربيع (ابن منظور ، مادة : ربع) .

(97) انظر **أشعار الشعراء الستة الجاهلين** ، ص222 (حاشية) . تفسير أبي عبيدة لكلمة «أصفار» على أنها تعني اصفرار الماء وتربل الشجر في آخر الصيف (السابق ، ص222) ليس له قيمة ، وذلك ببساطة لأن النابغة يشير إلى نشاط في الربيع ، وليس في آخر الصيف (انظر ما يأتي من مناقشة) .

(98) أول صفر في مواسم الربيع في ذلك العهد ما يقع ما بين أوائل نيسان وأوائل أيار من سنة 601م ، وآخر صفر في تلك المواسم يقع ما بين أواسط كانون وأواسط شباط من سنة 609م (انظر G. S. P. Freeman Grenville, **The Muslim and Christian Calendars**, London, 2nd edition 1977) .

(99) في مقابل هذه النتيجة ، يستبعد العشماوي أن يكون النابغة قد أدرك وفاة النعمان بن المنذر في مطلع القرن السابع ، فقط بناء على أن ديوانه يخلو من شعر موثوق في رثاء النعمان (النابغة ، ص115) .

(100) عرسان الراميني «عمرو بن هند في الشعر الجاهلي» ، **أبحاث اليرموك** ، م17 ، عدد 2 (1999) ، ص129-173 .

(101) الآن نستطيع أن نفهم فهما أفضل القصيدة رقم 46 في ديوان النابغة ، وفيها يكشف عن سخيمة يكنها له عمر بن الحارث بسبب **سعاية** بعضهم ، وعن محاولته سل هذه السخيمة من صدر الملك :

لقد تلفف لي عمرو على حنق  عن قول عرجلة ليسوا بأخيار
فجئت عمرا على ما كان من أضم  وما استجرت بغير الله من جار

وتأمل نهاية القصيدة :

وكم جزانا بأيد غير ظالمة  عرفا بعرف وإنكارا بإنكار
فشيمتاه : ذعاف السم واحدة  وشيمة للمواتي شهد مشتار

(102) مجموع ما قاله في الغساسنة ، مما يشتمل عليه ديوانه ، يبلغ 19 قصيدة ، تحتوي على 258 بيتاً ، منها 123 بيتاً في عمرو بن الحارث ، تقع في ست قصائد أو سبع هي ذات الأرقام : 59,46,35,26,24,9,3 (؟) ، بالنسبة إلى هذه الأخيرة ، قارن فيما يلي ، حاشية 111 .

(103) علقمة بن عبدة ، **الديوان** ، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ، حلب 1969م ، ق1 .

(104) المثقب العبدي ، **الديوان** ، تحقيق حسن الصيرفي ، القاهرة 1971م ، قصيد 3 .

(105) الأعشى ميمون قيس ، **الديوان** ، تحقيق محمد محمد حسين ، بيروت ، 1983 ، ق1 (لاحظ

بصفة خاصة البيت 40) .

(106) إن أبياتاً مثل : «علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب» (الديوان ، ق4/3) ينبغي ألا تضعف هذا التفسير . فإطلاق سراح أسرى لوساطة الشاعر ، أو حتى مفاداتهم بشيء يسير ، يعد نعمة من الملك (انظر بلاذري ، أنساب ، ج1 ، ورقة 1,94) .

(107) الديوان ، ق35 ، وانظر فيما سبق ، حاشية 83 . ويمكن أن يشار هنا أيضاً إلى قصيدة له في بني أسد يمجد فيها انتصاراتهم على الغساسنة (الديوان ، ق23) .

(108) الديوان ، ق74,40,25 .

(109) نفهم من بعض الروايات أنه كان قائداً لجيش الغساسنة منذ زمن الحارث بن أبي شمر (انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ص541 ؛ ابن حزم ، جمهرة ، ص537) ، لكن ينبغي أن تؤخذ هذه الرواية على أنها تشير إلى أمير جفني متأخر جداً يدعى أيضاً الحارث بن أبي شمر ، نسبة إلى جد أبيه ، هو الذي يذكر أحياناً في شرح بعض مناسبات قصائد حسان بن ثابت في الغساسنة (أغاني ، ج15 ، ص170 - 172) ، وربما يكون هو نفسه الحارث الحراب الذي يذكره النابغة (الديوان ، قصيدة 67) ، ويذكره حاتم الطائي (الديوان ، ص63 ؛ فارن نولدكه ، أمراء غسان ، ص- 46 44,23) .

(110) في هذه الحالة ، يكون نصيبه 73 بيتاً ، مقابل 43 بيتاً للنعمان بن الحارث .

(111) على اعتبار أنه يخاطب عمراً في القصيدة رقم 35 وينسبه إلى هند ، وأيضاً يدعو المخاطب في القصيدة رقم 24 «ابن هند» ويذكر أبو عبيدة أنه نفسه عمرو بن الحارث (انظر الديوان ، وقارن : العشماوي ، النابغة ، ص54 - 57 ؛ راميني ، أبحاث اليرموك ، 2/17(1999) ، ص(145 - 146) .

(112) يخاطب حاتم الطائي ، في بعض شعره ، من يدعوه «الحارث بن عمرو» ويلقبه بـ«الحارث الحراب» (الديوان ، بيروت ، 1980 ، ص63) ، ويذكره لبيد بوصفه من عظماء الناس الفانين ، الذين ينبغي أن يكونوا عبرة لغيرهم (الديوان ، تحقيق إحسان عباس ، الكويت ، 1962 ، ق3/5-126) .

(113) الديوان ، ق34,33,32,22,19,15 .

(114) يبلغ مجموع أبياتها 52 بيتاً من أصل 258 بيتاً تؤلف قصائد في الغساسنة .

(115) هذا واضح ، كما يبدو ، من شعر النابغة الذي يعلن فيه لعمرو بن الحارث أنه نصح الذبيانيين بأن يتجنبوا الإقامة وقت الربيع في وادي أقر (الديوان ، ق1/9) ، فلم تكن ذبيان في ذلك الوقت في موقع يؤهلها للاعتداء على ممتلكات الغساسنة ، فما دامت فعلت ذلك ، فإنها كانت ترى لها حقاً في أقر يحاول الغساسنة أن يغصبوها إياه . وفي شعر النابغة ما يستفاد منه أن وادي أقر كان من ممتلكات أسد وغطفان أيام اللخميين (الديوان ، ق1/47) .

(116) وهذا يتفق مع ما استنتجه ابراهيم الجبوري (انظر «علاقات الغساسنة مع القبائل العربية» ، سومر ، 45 (1987 - 1988م) ، ص283) .

(117) من الجدير بالملاحظة أن حملات الغساسنة وصلت إلى العراق ، كما نص على ذلك النابغة في قصيدة له في عمرو بن الحارث (الديوان ، ق35/24) ، وربما وصلت أيضاً إلى البحرين ، كما نفهم من شعر له في رثاء النعمان بن الحارث ، يذكر فيه ابتهاج قبائل قيس بن ثعلبة وآخرين

بخبر موت النعمان وما يعنيه ذلك من توقف غزواته الموسمية ضدهم (الديوان ، ق11/22-15) ، وكانت قيس بن ثعلبة تنزل البحرين . ويبدو أن اتساع نطاق النشاط الحربي الغساني آنذاك ارتبط بطبيعة الحالة التي نشأت بعد زوال ممكلة الحيرة .

(118) الديوان ، ق50,47,12,11,5 . وانظر العشماوي ، النابغة ، ص152 وما بعدها .

(119) الديوان ، ق39,11 .

(120) المصدر السابق ، ق17 .

(121) بالإضافة إلى رائيته المشهورة التي يعلن فيها أمام عمرو بن الحارث أنه نهى ذبيان عن الرعي في وادي ذي أقر (الديوان ، ق9) ، انظر قصيدة أخرى له ، في عمرو أيضاً ، يقول فيها الشيء نفسه تقريباً (الديوان ، ق31) .

نصحت بني عوف فلم يتقبلوا  وصاتي ولم تنجح لديهم وسائلي
فقلت لهم لا أعرفَنّ عقائلا  رعابيب من جنبي أريك وعاقل

إلى أن يقول :

وخلو له بين الجناب وعالج  فراق الخليط ذي الأذاة المزايل

(122) يذكر ابن حزم رجلا من بني يربوع بن غيظ اسمه غالب بن عوف ويقول إنه قطع الحلف بين أسد وذبيان (جمهرة الأنساب ، ص254) ؛ وغالب هذا متأخر ، معاصر للبعثة النبوية ، كما يستدل من سلسلة نسبه ، لكن تبقى المعلومة ملغزة في ضوء ما يعرف من أن قيادة ذبيان كانت في آل حذيفة بن بدر الفزاريين .

* * *